مجموعة من الكتّاب والكاتبات

نساء فوق العادة



ترجمة وتقديم

عبد الكريم قاسم حرب



نساء فوق العادة

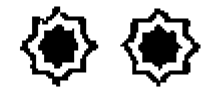
● نساء فوق العادة
● مجموعة من الكتاب والكاتبات
● ترجمة: عبد الكريم قاسم حرب

● الطبعة الأولى: 3 / 2011
● الناشر: دار الحوار للنشر والتوزيع

www.daralhiwar.com

سورية ـ اللاذقية ـ ص. ب: **1018**
هاتف وفاكس: ***963 41 422339***
البريد الإلكتروني: ***daralhiwar@gmail.com***

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار



مجموعة من الكتاب والكاتبات

نساء فوق العادة

دار الحوار

مقدمة المترجم:

لم يكن في خاطري أن أنقل قصة عن امرأة، وإنما تملكني هاجس بأن أوقد شمعة من خلال هذه الصورة الظلية التي أقدمها عن نساء كَتبَ عليهن القدر أن يضعن خطاهن في دروب لم يشأن أن يطأنها، وحينما بدأت الرحلة كُنَّ لها، وبمستوى من أراد أن يجسد بنفسه المقولة الأمثل وهي: إما أن أكون أو لا أكون. كُنَّ مثالاً حياً للقدرة على اجتياز امتحان ربما يسقط فيه حتى الرجال. ومن هنا بدأت القصص التي سنرى فيها صوراً مؤثرة وفريدة عن الجوع والانتهاك والإذلال والنجاح والصمود والفجيعة والغرابة والمرارة والإبداع وعذاب الجنون ونكران الذات وإثباتها، وكذلك سنجد في امرأة واحدة بعض أو كل ما أسلفنا.

ستبقى المرأة عنصراً فاعلاً في عالم اليوم والركيزة الأساسية نحو بناء مجتمع سليم، ولابد أن نعترف أن في حياتنا آلاف النساء اللواتي يستحققن أن نتوقف كثيراً عند تجاربهن، لاسيما أن هناك من استطعن أن يفتحن نافذة للأمل في مسارب الروح ودروب الحياة رغم كل ذلك الأسى الكوني الذي ضربهن مثل إعصار غير متوقع. ولأنني أقف إلى جانب كل من يقف احتراماً للمرأة والدور الذي تلعبه في المجتمع، فقد سعيت من أجل بذل جهد يسير ومتواضع من خلال تقديمي لتجارب

واقعية لعدد من الشخصيات النسوية المغمورة اللائي سجلن حضوراً، كلٌّ من موقعها على أمل أن أكون قد سلطت الضوء على جزء ولو يسيراً من نصفنا الآخر.

تحتل المرأة منزلة عظيمة بفضل قدسية الرسالة التي تحملها، لأنها ومنذ بدء الخليقة كانت وما زالت سكن البشرية وينبوع المودة والحنان بين أجيالها، فقد أوصت كل الأديان السماوية بأن تحظى بتكريم وتقدير يليق بها لما تقوم به من خدمات جليلة في الحياة.

ومع أن البعض يذهب إلى القول إن البداية تكون مع المرأة، لأنه من خلالها تتشكل النواة لمجتمع متحضر آمن، إلا أن التاريخ الإنساني فيه من الوقائع المؤلمة التي تتحدث عن معاناة المرأة في أصقاع الأرض. وفي واقعنا المعاصر هنالك أيضاً قصص حقيقية كثيرة عن النساء. ومن هذا المنطلق أعددت الكتاب «نساء فوق العادة» لكي أستعرض فيه عدداً من الشخصيات النسائية المعاصرة، من خلال قصصهن غير التقليدية التي تحمل في طياتها الغرابة والمرارة والإبداع. ولا شك أن قصص هذه النسوة تمثل مشهداً متكاملاً نطل به على حياتهن، لنتعرف كيف أن الظروف دفعت بالبعض منهن نحو آفاق ومسارات مكرهات لا بطلات.

لقد اخترت للقراء باقة متنوعة من الشخصيات النسائية، بينهن المغمورة التي تعمل بالقمامة وتكتفي بالحصول على ثلاثة دولارات فقط في اليوم الواحد، لكن قصتها فيها من البطولة ما يستحق أن يؤلف عنها كتاب وحدها. وهناك ابنة العائلة الفقيرة التي اعتلت سُلم المجد والشهرة والمليارديرية بعد قصة كفاح مثيرة أوصلتها لتكون ملكة عالم صناعة تدوير النفايات. وكذلك سنعرض قصة تلك التي اغتصبت دونما سبب، وقطّعت أطرافها وما زالت تعيش إنسانة ترنو إلى كرامة غير مثلومة ترى فيها الجلاد قد نال جزاءه.

وهناك المراهقة التي عاشت بريطانيا بسببها أطول حادثة اختفاء، الأمر الذي دفع بأختها إلى أن تؤلف كتاباً يسرد تفاصيل محنة الضحية وعائلتها. كما نعرض تجربة كل من الشابتين «جيورجي فرانسس» و«جابريل روس»، وهي تجربة لا يصدقها أحد فيما لو اكتفى بقراءة عنوان الموضوع فقط، إذ كيف لشابتين لم تبلغا الثلاثين أن تتحولا إلى مليونيريتين إلى مليونيرات من خلال عمل يدوي تقومان بممارسته في غرفة صغيرة داخل البيت!!. في قصتي هاتين الفتاتين الكثير من التفاصيل المثيرة وخلطة سحرية جاهزة لمن تريد أن تبدأ حياة عملية ناجحة.

سنتعرف على نساء عشن ظروفاً غير اعتيادية بالمطلق، وبذلن كل ما في وسعهن من أجل البقاء لكي يصلن إلى هدفهن، فهناك من جاهدت ضد الفقر والعوز، وهناك من وقفت بشجاعة أمام من اتهمها بالجنون لتستعيد نفسها وحياتها بعد أن غيبتها المصحة النفسية، لكنها رجعت طبيبة تبهر الآخرين بأدائها. أما تلك المرأة التي عاشت في الظلمة ستة عشر عاماً فإنها لم تتوقع أن ترى النور ثانية، لكن الله جل وعلا كان عونها في استعادة حياتها الطبيعية.

للنساء اللواتي أقدّمهن في هذا الكتاب قصص غريبة وغير مألوفة، فيها من الإثارة الكثير وفيها من الحزن الكثير، وفيها من العبر التي تجعلنا نقف متأملين لهذا العالم الرث، وفيها من الأمل أيضاً، بحيث تصل إحداهن إلى القمة في غفلة من الزمن في حين تحمل الأخرى فجيعتها معها سنين طوالاً، ولا تستطيع فعل أي شيء سوى البوح بصمت عن مكنوناتها وآلامها.

سيقف القارىء طويلاً أمام هذه التوليفة التي نعرضها دون رتوش، لأن هناك من النساء من تقول إن الحياة لا تتوقف عند أول انكفاءة، ولا

تنتهي مع زلة أو انكسار، بل إنها تجسد الحكمة التي تقول: إنْ كان للفشل جولة فللنجاح جولات. وبالتأكيد فإن نجاح بعضهن، رغم ما تعرضن له من ألوان العذاب والحرمان يعكس بوضوح تام حقيقة أن المرأة، ومهما كان ضعفها، لأي سبب، فهي تختزن من الإمكانات الهائلة التي لو استطاعت تفجيرها لفعلت الكثير، وإلا كيف لفتاة من قبائل الدنكا تستطيع الهروب بإصرار مسبق من الحرب الممزقة لبلادها لتسجل بعد ذلك اسمها بين أفضل موديلات العالم؟ وكذلك كيف تستطيع إحداهن أن تقود طائرة مقاتلة قد يتردد حتى قسم من الرجال في القيام بهكذا مهمة.

ولأن التنوع في اختيار هذه الشخصيات كان ضمن تصورنا، فقد ارتأيت أن تكون هناك أكثر من وقفة مع نساء مجهولات في هذه الحياة، ومن اللائي حينما سنحت الفرصة لإحداهن لتفصح عن قدراتها، كانت على الموعد، واستغلتها لتتسلق سلم المجد. إن البعض من أولئك النسوة شكلن حلقة مهمة في حياتنا اليومية بل إنهن في نظر البعض مجاهدات من الطراز الأول وينطبق عليهن وصف جنديات مجهولات بفضل الدور الذي يضطلعن به. فعلى سبيل المثال: إن المهنة التي اختارتها هذه المرأة الفلبينية التي أسميناها بـ «امرأة القمامة» كانت مكرهة عليها، لكنها في النهاية ومن أجل أن تواجه شظف العيش استطاعت أن تقهر الحياة بالوقوف على جبل النفايات لتأخذ على عاتقها مسؤولية عائلة كاملة عبر توفير كامل احتياجاتها وذلك من خلال كسبها «ثلاثة دولارات» يومياً فقط، فيما نجد أن البعض ينفق مثل هذا المبلغ على وجبة طعام لكلابه. ومع ذلك فهذه السيدة سعيدة بحياتها البسيطة رغم منغصات مهنة نعتقد أن الجميع ينفر منها.

إن النضال الذي تعيشه المرأة في كل مكان هو نضال من أجل أن تحصل على كرامتها والتي هي بالتالي كرامة بني البشر جميعاً. لذا فمن خلال بعض من هذه القصص تُبعَث رسالات للعالم مفادها أنه لابد من الكف عن التعاطي مع قضية المرأة بعبثية والتي لها كل الحق في أن تحيا حياة حرة كريمة بدلاً من النظر إليها كسلعة أو ملاذ لقضاء الرغبات الرخيصة حيث تقام العلاقات استناداً لما هو مادي بحت.

نتوخى من القارىء أن يتابع تلك النماذج من النساء اللائي عشن تجارب مختلفة ومؤثرة لنستشف منها معاني ودلالات كثيرة قد تمهد لموقف مادي وعملي إزاء حالات خاطئة يمكن أن تسود مجتمعاتنا في هذه الأيام. ولا بأس بأن نعرض بعض التجارب لنساء قد لا نتفق مع مضامين حياتهن، أو قد تكون تجاربهن موضع استهجان من قبل آخرين، لكننا نتوخى المردود الإيجابي، لأنه فمن خلال إطلاعنا على تجارب الآخرين نستطيع أن نُقَوِّم تجاربنا وأخطاءنا وأن ننطلق نحو حياة يسودها العدل الإلهي.

عبد الكريم قاسم حرب

فاطيماتو

من السهولة أن تلاحظ ذلك التشويه الذي أصاب ذلك الجسد النحيل لفاطيماتو سموح غير أنه من الصعب جداً الوقوف على الجروح النفسية التي تعتري دواخل هذه المرأة السمراء ما لم تبح هي بمرارة الفجيعة التي عاشتها على يد ما كان يعرف بـ «وحدات قطع الأطراف»، وهم عبارة عن جنود موالين للرئيس الليبيري السابق تشارلس تايلور الذي يحاكم الآن لارتكابه جرائم حرب.

وتنتظر فاطيماتو ـ وهي إحدى ضحاياه ـ أخباراً تسمعها عن محاكمة وحدات قطع الأطراف لتشعر بأنها أخذت جزءاً من حقوقها الكثيرة التي استلبت في لحظة من الزمن على يد تلك الجماعات المسلحة التي كانت ذراعه الطولى في سيراليون والتي ارتكبت جرائم ضد البشرية.

ترتجف فاطيماتو من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها عندما تستذكر ذلك اليوم الأسود الذي فقدت به طفولتها وعذريتها إلى غير رجعة. تتذكر

فاطيماتو يوم السادس من يناير **1999** الذي كان فيه عمرها آنذاك حوالي **8**

أعوام بألم فيما تهطل دموعها بغزارة. لقد شهد ذلك اليوم إحراق عائلة وتشويه براءة وقد أحيلت كل الأحلام إلى رماد.

وأياً كان حجم المحاولات المبذولة لترميم الندوب التي تركتها هذه الحادثة تبقى اليد اليسرى المبتورة لفاطيماتو شاهداً على ذلك الخراب الجسدي الذي يعتريها كلما أطلت على مأساتها التي هي ربما مأساة الآلاف من الفتيات القصر اللاتي استبحن من قبل الجماعات المسلحة في وضح النهار.

إن المحنة التي ارتبطت بها فاطيماتو هي محنة حوالي **130** شخصاً أدلوا بشهادتهم في محكمة العدل الدولية التي مقرها لاهاي. وكل الدلائل تشير إلى أن ساعة الحساب للفظائع التي ارتكبت من قبل وحدات قاطعي الأطراف ـ وهم جزء من قوات التمرد التي استباحت المدنيين في سيراليون بقيادة تايلور ـ قادمة.

إن النهب والسلب الذي تعرض له ذلك البلد الفقير المجاور لليبيريا والذي هو بأمس الحاجة لثرواته المعدنية أدى إلى نتائج كارثية طالت حتى الفتيات القصر ومن بينهن كانت فاطيماتو.

وفي تفاصيل الجريمة النكراء، كانت الساعة السادسة صباحاً عندما اندفع المتمردون إلى منزل العائلة الذي يقع في فريتاون في العاصمة. أخذ قلب الطفلة ذات الأعوام الثمانية يخفق بسرعة من شدة الخوف. لقد أخفاها والدها الذي كان يعمل تاجراً تحت مائدة الطعام، فيما استلقت والدة فاطيماتو تحت أحد الأسرّة التي ينامون عليها غير أن المتمردين لاحظوا حركتها وبدأوا بالصراخ في المكان.

وتقول فاطيماتو: قفزت والدتي من تحت السرير وظهرت أمامهم وتوسلتهم ألا يؤذوا أحداً. أما والدي فقد أعطى نقوداً للمسلحين ليقنعهم أن يغادروا المكان. وبعد أن تمكنوا من الإفلات من قبضة المجموعة الأولى، أصرت والدة فاطيماتو على أن يحزموا احتياجاتهم الضرورية ويتجهوا إلى مكان أكثر أمان. ولم يمض سوى وقت قليل على خروج العائلة المكونة من والدي فاطيماتو وأخويها وأختيها من بوابة المنزل إلا ومجموعة أخرى من المسلحين تستوقفهم ليدخلوا في محنة جديدة.

تقول فاطيماتو: كان والدي يمسك بيدي وإخوتي يسيرون بالقرب منا فيما كانت والدتي تسير خلفنا وهي تحمل حقيبة تحتوي بعض احتياجاتنا الضرورية. وهنا أوقفها بعض المتمردين وطلبوا منها أن تخلع ملابسها تحت تهديد السلاح، ثم دفعوها إلى الأرض وعندما جثت على ركبتيها أطلق أحدهم النار على ظهرها.

وتضيف فاطيماتو: أخذت والدتي تصرخ من شدة الألم فركضت نحوها كما فعل ذلك والدي ليساعدها. بعد ثوان قليلة رفع والدي يديه وتوسلهم أن يتركوها وحدها. غير أن والدتي واصلت صراخها بسبب الإصابة التي ألمت بها فتقدم مسلح آخر مقترباً منها وهو يقول: علينا أن ننهي حياتك الآن، وما إن أكمل كلماته قام بإطلاق رصاصة أخرى على والدتي وأرداها قتيلة في المكان.

وتضيف فاطيماتو وهي تحاول أن تبدو متماسكة قدر الإمكان: في البداية أخذ والدي يبكي ومن ثم بدأ يردد لقد ماتت زوجتي لقد ماتت زوجتي، وعندما أفقت من ذهولي وشرعت بالصراخ والبكاء وضع شيئاً ما في فمي كي أبقى صامتة. لم ينته المشهد عند هذا الحد من المأساة بل قام المتمردون بجر فاطيماتو بعيداً عن والدها الذي أمروه بالاستلقاء على الأرض. وفي هذا الإثناء اندفع أحد المتمردين وكان يحمل بيده سكيناً

حادة وطلب منها ما لم تتوقعه على الإطلاق. تقول فاطيماتو وهي ترتجف: أخبروني وبلهجة ترويع آمرة بأنني يجب أن أقطع حنجرته بيدي. فما كان مني إلا أن بدأت بالصراخ من جديد وأهز رأسي بشكل هستيري. وفي خضم تداخل البكاء بالصراخ بالرعب لاحظت أن والدي يشير إليّ بيديه أن أدنو منه، وعندما تحركت للاقتراب سحبوني عنه بقوة بعيداً وأخبروه بأنهم سيعاقبونه قبل أن يقتلوه. كانت سحب الدخان تلف معظم الشارع بسبب الانفجارات التي وقعت بالقرب منا. ومن ثم تقدم أحد المسلحين وأطلق النار عليه بصورة مباغتة لتكون بمثابة رصاصة الرحمة لعذاباتي التي تتوالى كما لو أنها مسلسل لا ينتهي عند نقطة ما.

ومع أنها كانت في لحظة ارتباك وفوضى إلا أن فاطيماتو نجحت في التخلص والركض نحو المنزل القريب حيث كانت تصرخ باتجاه أخيها الأكبر **18** سنة الذي كان أيضاً قد فر منهم واستطاع أن يختفي تحت الدرج الذي يقع في الفناء الخارجي للبناية.

وتضيف: بعدها سمعت أخي يناديني بصوت خافت، فنظرت باتجاه الصوت فشاهدته يختبىء في بالوعة الصرف الصحي وركضت نحوه فاستطاع أن يخفيني معه. وظللنا ساكنين في مكاننا إلى أن جاء المتمردون وأضرموا النار بالمنزل بأكمله. وانتظرنا إلى أن حانت لحظة شعرنا بأن الطريق آمن فخرجنا من البالوعة وركضنا بأقصى ما نستطيع. لكن بعد مسافة بعيدة وجدت فاطيماتو نفسها أنها قد ابتعدت عن أخيها وأصبحت وحيدة.

وتسترسل فاطيماتو في سرد تفاصيل مأساتها: أثناء سيري شاهدت وعلى نحو مفاجىء مجموعة من الناس بدا عليهم وكأنهم مدنيون فركضت نحوهم معتقدة أنني قد وجدت طوق النجاة للخلاص من محنتي

غير أن تلك كان بداية لفجيعة أخرى إذ أنه وبعد أن تسللت ودخلت بينهم اكتشفت أنهم لم يكونوا سوى مدنيين محتجزين من قبل المسلحين.

ومنذ الوهلة الأولى أدركت أنني أصبحت بين فكي وحدات قطع الأذرع.. كانت إحدى النساء واقفة فيما الدماء تنزف منها فقد قطع المتمردون ذراعيها الإثنتين. وتقول فاطيماتو: لم تكن تلك المرأة هي الوحيدة فكانت هناك أيضاً طفلة بالقرب منها قد تم قطع ذراعاها أيضاً، وعندما أذهلني المشهد حاولت التراجع للخلف فشاهدني أحدهم وأمسك بي كمن حصل على فريسته.

ومن المكن سماع أنفاس فاطيماتو المتسارعة كلما حاولت استذكار الفظائع التي أرغمت على عيشها لاسيما عندما تروي كيف أبقاها المتمردون عندهم لمدة أسبوع واغتصبوها خلال ذلك مرات عديدة. وعندما اكتفوا منها قطعوا إحدى ذراعيها باستخدام سيف شبيه بالذي يستخدمه قراصنة البحر. وتضيف فاطيماتو: في تلك اللحظة لم أعد أشعر بأي شيء آخر فقط إحساس واحد هو أني مت من الداخل. وحينما تركوني على هذه الحالة، انسحبت مبتعدة عنهم فيما كانت الدماء تنزف من ذراعي وجروحي النفسية والداخلية أكثر نزفاً. وبعد مدة من الزمن عُثرَ على فاطيماتو من قبل قوات حفظ السلام لغرب إفريقيا حيث أخذت إلى المستشفى. وبعد عدة أيام اضطر الأطباء إلى بتر ذراعها من فوق المرفق.

وقدرت الإحصائيات عدد الأطفال البالغين الذين قطعت أيديهم من قبل جماعة المتمردين حوالي **4000** و **6000** شخص على التوالي. وفي ضوء المعايير المحلية لقد قسم الضحايا إلى ذوي الأكمام القصيرة وهم الذين قطع جزء من أذرعهم وأصحاب الأكمام الطويلة وهم الذين فقدوا أذرعهم بالكامل. إن صور الضحايا والروايات المروعة للأطفال الجنود الذين يحملون حقائب محملة بأعضاء بشرية وهم يجوبون شوارع فريتاون

ويأخذونها إلى قادة المتمردين أصبحت محط اهتمام المجتمع الدولي. وبحلول عام 2000 وتحديداً عندما تدخلت القوات البريطانية لتأمين العاصمة تم اكتشاف حجم المأساة التي كانت فاطيماتو إحدى نماذجها الحية.

ومع اضطرار متمردي الجبهة الثورية المتحدة للتقهقر والدخول في الغابات والأحراش، ومن ثم تمركز قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة بدأ الكثيرون ممن بترت أذرعهم التفكير بمستقبل أكثر إشراقاً رغم حجم المعاناة.

ووفقاً لحسابات التاريخ فإن الحرب الأهلية قد انتهت من الناحية الرسمية في عام 2002 والأمم المتحدة دعمت لجنة الحقيقة والمصالحة وأوصت بتقديم المساعدة المالية للأشخاص الذين بترت أطرافهم في 2004 إلا أن الأموال لم تصل أبداً ومعظم الضحايا يشعرون بأنهم قد أهملوا وخدعوا، بل إنهم يزعمون أن الكثير قد أنجز من أجل إعادة بناء حياة المتمردين بدلاً من حياة الضحايا.

وفي الوقت الذي أُعيد تأهيل المقاتلين، بمن فيهم بعض السيافين «الذين كانوا يذبحون الناس باستخدام السيوف» والذين نفذوا المجازر حيث تلقوا التدريبات والأدوات التجارية التي تنفعهم في حياتهم الجديدة، تُركَ معظم الذين بترت أطرافهم يعيلون أنفسهم بأنفسهم عبر التسول بالشوارع.

إن الحكومة التي أعادت تأكيد سلطتها في المناطق التي كان يسيطر عليها سابقاً المتمردون لم تستطع حتى الآن معالجة الفقر المستشري في البلاد التي مزقتها الحرب طوال إحدى عشرة سنة. ويقول متهمو تشارلس تايلور الرئيس السابق إن ذلك جزء آخر من الآثار التي خلفها على المنطقة.

وتؤوي حالياً مدن الصفيح الأشخاص الذين فروا من الريف إلى العاصمة فريتاون. وحوالي ثلث السكان - الذين يقدر عددهم بـ 5.3 مليون - أزيحوا من مساكنهم بسبب الحرب وأكثر من الثلث يعيشون على أقل من دولار لليوم الواحد. والبقية قلقون بشأن الآلاف من المعاقين الذين هم نتاج لمجازر المتمردين.

بعد ست سنوات من انتهاء الصراع في سيراليون، لم تتخذ أي إجراءات تذكر لإنصاف الناجيات من العنف الجنسي، والاعتراف بمعاناتهن، وتعويضهن عما قاسينه، مما يعينهن على إعادة بناء حياتهن. وقد وقعت الانتهاكات على أيدي جميع الأطراف التي شاركت في الصراع الذي استغرق 11

عاماً، ومن بين الجرائم التي ارتكبت الاغتصاب، والاسترقاق الجنسي، والحمل القسري، وغيرها من جرائم العنف الجنسي التي كابدتها ما يقدر بربع مليون امرأة وفتاة، ولم يكن العنف الجنسي حدثاً فردياً بالنسبة لضحايا هذه الجرائم، بل انتهاكاً مستمراً، وبعد أن استهدفن بصورة منهجية إبان الحرب، تفاقمت جروحهن البدنية والنفسية من الفضيحة والعار والتمييز المجحف ضدهن خلال السنوات التي انقضت منذ انتهاء الأعمال الحربية.

وقد لجأن إلى العديد من السبل للبقاء على قيد الحياة، سواء أثناء الصراع أم خلال السنوات التي أعقبته، وشعرت بعض الناجيات بالخزي مما قاسينه من العنف الجنسي إلى حد منعهن من العودة إلى بلداتهن وقراهن، وثمة أخريات يعشن في صمت عاجزات عن الإفصاح لأحد عن ذكرياتهن المؤلمة خشية أن تنبذهن عائلاتهن أو يفقدن الأمان الاقتصادي. وفضلاً عن هذا، فإن الكثيرات من النساء والفتيات يتعرضن للتمييز

والعزلة والنبذ من مجتمعاتهن باعتبارهن زوجات المتمردين في السابق. ونتيجة لذلك، يجدن صعوبة في الحصول على الطعام والمأوى والعمل والرعاية الصحية، ويمنعن في الواقع الفعلي من الاندماج من جديد في لحمة المجتمع.

ورغبة هؤلاء النساء والفتيات في الإنصاف والتعويض إنما تهدف إلى تمكينهن من الاعتماد على أنفسهن من الناحية الاقتصادية، أي كسب أرزاقهن وإعالة أبنائهن والبدء في إعادة بناء حياتهن بمعزل عن الخوف والعار والتمييز. ولم تعالج الحكومة في سيراليون الآثار البدنية والنفسية للجرائم التي ارتكبت بحق هذا العدد الكبير من النساء والفتيات، ولم تسع لضمان الإنصاف، أو الاعتراف بالجرائم، أو وضع برامج إعادة التأهيل التي بدونها لا تستطيع الضحايا البدء في بناء حياتهن وحياة أطفالهن من جديد.

ولكي تتمكن التعويضات المقدمة للنساء والفتيات في سيراليون من معالجة الآثار الاجتماعية والفردية المعقدة المترتبة على الإيذاء الجنسي، لابد أن تأتي في إطار استراتيجية أشمل لمنع أعمال العنف في المستقبل، والتصدي للتمييز ضد المرأة الضارب بجذوره في المجتمع. وترسيخ مبدأ المساواة، والارتقاء بأوضاع المرأة. وقد أوصت لجنة الحقيقة والمصالحة في سيراليون بإجراءات محددة تكفل تقديم تعويضات لضحايا الإيذاء الجنسي ما يمكنهن من البدء في إصلاح الضرر الذي لحق بهن. ولابد أن يكون للناجيات أنفسهن دور نشط في برنامج التعويضات الذي يلبي احتياجاتهن بحق.

ومن بين القصص الأخرى أن حوالي 15 فتاة وخمسة أطفال من نفس المكان من فريتاون أخذوا بعد أن نصب لهم كمين إلى أحد المعسكرات،

حيث يستخدمهم المتمردون كدواب بشرية في النهار لنقل الأعتدة والأسلحة وفي الليل تجري عملية اغتصاب للفتيات على نحو ممنهج.

وتقول ماريياتو إحدى الضحايا: لقد فقدت عذريتي وكانوا خمسة أشخاص يتناوبون على هتك عرضي ولا أجرؤ أن أبكي حتى لا يقتلوني، لكنها استطاعت في النهاية أن تهرب مع فتاتين أخريين رغم أنهن قد ربطن معاً من الأرجل، وبعد ذلك أصابوها في الفخذ ونتيجة لإصابتها بالغرغرينا فقد بترت ساقها.

أما ضحيتنا فاطيماتو فتعيش الآن على تسلمها لمساعدة مالية وسكن من منظمة نرويجية إلا أنها لم تكمل سوى سنتين دراسيتين، فما زالت تعاني وقد لا تستطيع إكمال المدرسة في ظل شح الموارد.

وترتبط فاطيماتو بعلاقة مع ماريانو لكونهما تعيشان في نفس السكن، وتعملان على تطييب الخواطر وتهدئة بعضهما البعض لهول المأساة التي عايشتاها واستطاعت فاطيماتو مؤخراً الالتقاء بأخيها الأكبر الذي أخفاها في البالوعة بعد قتل أبيها إلا أنها حتى الآن تجهل مصير أخيها الآخر وشقيقتها. لكنها مازالت بانتظار أخبار عن محاكمة تايلور وتتوق لاستكمال الدراسة وتتمنى فاطيماتو أن تصبح محامية في المستقبل حيث تقول: أريد أن أكون تلك المحامية التي تدافع وتدعم الضحايا الفقراء من أمثالي في المستقبل.

امبراطورة النفايات

يطلقون عليها إمبراطورة النفايات أو سيدة الورق وفي هذا الموضوع يبدو أن ملكة النفايات هو اللقب الأكثر قرباً من نجاحات هذه السيدة الصينية، وحينما تُسْأَل عن هذه الألقاب تبدي اعتزازاً كبيراً بها لأنها جنتها من عملها الدؤوب والناجح في هذا النوع من الصناعة. تشونج يان - امرأة صينية استطاعت أن تنهض من اللاشيء لتصبح أغنى أغنياء الصين وواحدة من أغنى النساء في العالم فضلاً عن تفردها بأنها المرأة التي صنعت نفسها بنفسها. لقد استطاعت تشونج أن تشق طريقها وتصنع لها اسماً في عالم صناعة وإعادة تدوير وإنتاج نفايات الورق في بلد مثل الصين. ويرى بعض المراقبين أنه لو كانت تشونج في الغرب لبدا الأمر طبيعياً لكن صعودها المذهل في الدولة الشيوعية التي تمتلك أكبر الشركات والمؤسسات في العالم يعد إنجازاً غير مسبوق بالنسبة لإمبراطورة النفايات.

ومازالت تشونج تلك المرأة البسيطة والمتواضعة التي لا تعرف طموحاتها الحدود، وعندما تسأل عن النصيحة التي توجهها للمرأة التي

ترغب في ولوج مضمار التجارة والأعمال تؤكد تشونج: قبل كل شيء على الأنثى أن تعرف المجال الذي يلائمها وأن تتحمل الضغوط التي تترتب من جراء العمل. عموماً فإن تشونج التي لقبت بملكة النفايات نموذج غير اعتيادي لامرأة كونت نفسها من اللاشيء.

ولدت تشونج يان في عالم الفقر والبؤس وبدأت حياتها العملية بإعادة تدوير للورق قبل أكثر من 20 سنة مضت بعد أن حصلت على قرض من أحد البنوك قيمته 2500 جنيه إسترليني وشرعت باستثماره في تجارتها البسيطة. وها هي اليوم تعد إحدى أغنى نساء العالم التي بنت ثروتها بنفسها. ولم تكن من اللاتي ورثن عن أبيها وزوجها بل صنعت كل فلس بجهدها وبتدبيرها. وربما أن هذه النقطة لا تملكها أي سيدة أخرى ممن امتلكن ثروات كبيرة، إذ أن الغالبية تعكزن على موارد وإمكانات مادية وقدرات غيرهن. لو تخطينا بل جيتس ونحينا جانباً رومان إبراموفتش واستبعدنا بج موما من نادي المليارديرية فإن تشونج يان في الواقع امرأة صغيرة الحجم لكنها كبيرة في عالم الأعمال والتجارة بل يصفها البعض بأنها عملاقة قياساً لسيدات جنسها.

ولدت تشونج في إقليم هيلونج جيانج في شمال شرق الصين وتقيم الآن في لوس أنجلوس وبدأت ببناء ثروتها عام 1985 عندما أقامت مشروعها الحلم للإتجار بالنفايات الورقية في هونغ كونغ وبعد ذلك أصبحت أكبر مصدر لقصاصات الورق بالجملة في الولايات المتحدة.

إن هذه الإمبراطورة الصينية المولد التي تجاوزت الخمسين بقليل تعد استثناء في كينونتها لأنها قفزت على مواطناتها ومواطنيها ـ الذين يبلغ تعدادهم أكثر من مليار وثلاثمائة مليون نسمة ـ لتصبح أغنى شخصية في الأمة الأكثر تعداداً في العالم كما أنها حصلت على لقب المرأة الأكثر ثراء في العالم التي استطاعت أن تصنع نفسها بنفسها دون مساعدة الآخرين.

وتقدر ثروتها بحوالي ثلاثة مليارات دولار تقريباً. ولابد من الإشارة إلى أن هناك الكثير من الشخصيات الثرية المعروفة في مجال المال والأعمال والذين تكون ثروتهم على الورق غير أن حالة الإمبراطورة تشونج يان مختلفة فإن الرقم المذكور حقيقة قائمة بدون أي فبركات.

لقد صنعت تلك السيدة ثروتها الهائلة من خلال شراء الورق التالف السكراب الذي تقوم بإعادة تدويره ومن ثم تحوله إلى ورق للتغليف. وقد فعلت ذلك في بلدها الصين الذي لا يزال يجنح نحو الشيوعية ويرفض الملكية الخاصة وذلك بحد ذاته أضفى على نجاحها هالة غير اعتيادية.

في عام **2005** السيدة تشونج كانت قد احتلت المرتبة السادسة والثلاثين في تقرير هورنو عن قائمة الأغنياء الصينيين. والحقيقة أن قدرتها على قفز **35** مرتبة وحصولها على المركز الأول في غضون سنة واحدة يعزى بدرجة كبيرة إلى تعويم شركتها ـ ناين دراجونسن بيبر ـ في بورصة هونغ كونغ للأوراق المالية في ذلك الوقت.

لقد ارتفعت أسعار الأسهم بمقدار بلغ **165**٪ منذ ذلك الوقت وذلك يعني أن السيدة تشونج قد زادت ثروتها تسعة أضعاف في وقت لا زالت تحتفظ بـ **72**٪ أو أكثر بثلثين من أسهم الشركة. وهكذا فإن بروزها إلى قمة القائمة جعلها تزيح صاحب المركز السابق هوانج جوانجيو الشخص الذي يملك شركة جوم الكترونكس التي تعد أكبر شركة لبيع المواد الكهربائية بالتجزئة.

لقد إستطاعت أن تبني إمبراطوريتها من خلال استغلالها لأول فرصة حانت أمامها عبر استثمار كل ما تملكه في عملها. ولكن بالتأكيد فإن قصة نجاحها تعني قصة نجاح الصين الجديدة أيضاً ـ وهي الأمة التي تمكنت من أن تؤسس لها طريقاً وسطاً بين أيديولوجيتين متناقضتين

جذرياً هما الشيوعية والرأسمالية وجعلتهما متعايشتين في اقتصادها المتنامي.

وليس ذلك وحسب بل إننا أدركنا الكثير عن ذلك من خلال تجربة السيدة تشونج نفسها. كما أن هذا الانطلاق المذهل إلى القمة لا يمكن أن يحدث في دولة شيوعية حيث إن أكبر الشركات والمؤسسات الصناعية تكون مملوكة عادة إلى القطاع الحكومي أو على أقل تقدير يكون مديروها من الذكور لهم ارتباطاتهم القوية بأصحاب القرار والنفوذ. والمعروف أنه حتى وقت متأخر كان من غير المستحسن بالنسبة لأصحاب الأعمال التجارية الخاصة في الصين أن يعلنوا أمام الملأ أن تجارتهم تسير بشكل جيد. وفقط في عام **2004** تم تعديل بعض فقرات الدستور الصيني لضمان حماية الملكية الخاصة.

عموماً السيدة تشونج نادراً ما توافق على إجراء مقابلة معها والمعروف أنها أجرت مقابلة واحدة فقط تحدثت فيها عن كل شيء في نشأتها في مجال التجارة. ويذكر أن شركة ناين دراجونس بيبر التي تعني شركة التنانين التسعة لصناعة ورق التغليف ترأس مجلس إدارتها السيدة تشونج تعد إضافة كبيرة للصناعة على مستوى العالم.

وما يعرف عن تلك السيدة أنها ولدت في عام **1957** في ذلك الإقليم النائي والبعيد إقليم هيلونج جانج الذي يقع في شمال شرق الصين. وكانت الابنة الكبرى من بين ثمانية أطفال.. ونشأت في عائلة تربت على الحياة العسكرية. ومن خلال ذلك يمكن أن نستنتج أن العائلة لم تكن ثرية ولم تكن فقيرة لأن العاملين في الجيش كانوا يتمتعون ببعض المزايا. وبالرغم من ذلك فإن إطعام وتعليم ثمانية أطفال في تلك السنوات العجاف التي تلت الحرب العالمية الثانية ومن ثم سطوع نجم الزعيم الشيوعي ماوتسي تونغ في السلطة لم يكن بالأمر الهين.

كان والداها يشجعان روح الاستقلال لدى أطفالهما. وتستذكر السيدة تشونج عائلتها فتقول: في تلك الأيام لم نأكل اللحم سوى في أيام العطل وكنا نقوم بترقيع ملابسنا كما أن افتقارنا للمادة ولبعض الضروريات جعلني أعرف قيمة الممتلكات. وكان والداي دائماً يشجعاننا على مواجهة الحياة وحل مشاكلنا بأنفسنا وذلك قادني إلى تأسيس قاعدة جيدة في حياتي العملية.

من الناحية الفعلية بدأ توجهي للحياة العملية في عام **1985** عندما شرعت الصين تدخل سياسات اقتصادية أكثر ليبرالية. بعد ذلك تحركت السيدة تشونج إلى الجنوب وبحوزتها مبلغ من المال قدره **2500** جنيه إسترليني وبدأت عملها في هونغ كونغ بالمتاجرة بنفايات الورق. وكانت تشونج جزءاً من شريحة الطبقة الوسطى التي تنامت بسرعة. وأخذت أعمالها تتطور أكثر فأكثر وفي غضون ست سنوات أصبح لدى الشركة رأس مال كبير.

وفي مطلع عقد التسعينيات انتقلت السيدة تشونج مع زوجها التايواني لاي منجنشنج إلى لوس أنجلوس حيث انطلقت إلى السوق العالمية وتسلقت صفوف الأغنياء المشاهير في العالم.

والمعروف أن الولايات المتحدة تخلف كميات كبيرة من نفايات الورق التي يمكن إعادة تدويرها إلى منتجات أخرى. وقد برز الصينيون كلاعبين رئيسيين في تصنيع وتصدير مختلف أنواع البضائع والسلع إلى الغرب وإلى مستهلكين من شرائح عديدة في الصين، ولذلك فإنهم كانوا بحاجة إلى مواد تغليف من النوعية الجيدة. وقد أسست السيدة تشونج شركة أمريكا تشونج نام لتقوم بتصدير نفايات الورق من الولايات المتحدة وتعيد تدويره إلى صناديق خزانات وحاويات في مصنع جديد بنته في دلتا نهر بيرل وهي منطقة مزدهرة في إقليم جواندونج. وقد سمت المصنع الجديد ورق

التنانين التسعة. ويعد في الوقت الحاضر أكبر مصنع لتصنيع مواد التغليف في الصين وفي الوقت نفسه تعتبر شركة أمريكا تشونج نام الشركة الرائدة في تصدير الورق التالف في عموم الولايات المتحدة الأمريكية.

وتقول السيدة تشونج: إن تنبؤنا للسوق قبل الجهات المنافسة لنا والذي قرناه باستثمار كميات كبيرة من الأموال هو الذي جعلنا نتبوأ الزعامة في السوق.

وقد تضاعفت أرباح شركة ورق التنانين التسعة كما أن الرئيس أعلن أن الخطط قد أطلقت لمضاعفة القدرة في غضون السنتين فضلاً عن الطموح القائم في تخطي أي منافسين.. وتوقع محللون مستقلون أن تزداد عائدات الشركة بمقدار 50٪ في غضون السنوات القادمة.

ربما يبدو ذلك الصعود مذهلاً إلا أن السيدة تشونج أسست لنفسها قاعدة لتكون زعيمة سوق في مجال لم يظهر فيه الطلب والعرض أي تناقص، لاسيما أن الصينيين أخذوا يزدادون غنى وقدراتهم الشرائية ارتفعت وأحكموا قبضتهم على نمو إضافي خارج الوطن ووصلوا إلى داخل أوروبا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية.

وتقول: ولو عدنا إلى الوطن فإن مدناً مثل بكين وشنغهاي وجوانزهو أصبحت تملك الآن مواقع لماركات عالمية مثل لويس فويتون وتشانيل وفيراري وفتحت لها منافذ للبيع بالتجزئة.. وفي الوقت نفسه، ومع تزايد الوعي البيئي في عموم بلدان العالم أصبح من الواضح أن الطلب على النفايات الورقية لإعادة تدويرها وإنتاجها على شكل مواد تغليف للبضائع التي يقبل على شرائها أبناء الطبقة الوسطى الصينية لا يمكن أن يتناقص، بل كل المؤشرات تقول إنه في تزايد.

ورغم أن هناك 35 امرأة في قائمة الأغنياء الصينيين إلا أن النصيحة التي تقدمها إمبراطورة النفايات لكل امرأة تريد أن تصبح سيدة أعمال هو

أن تعرف أي عمل يلائم قدراتها ولا ترغم نفسها على أي شيء بل يجب أن تكون ذات عقلية متفتحة وقادرة على تحمل الضغوط وأن تعتني بصحتها. وبقصة شعرها القصيرة وبدلتها الأنيقة يبدو من الواضح أن سيدة ورق النفايات امرأة تعرف ما هي قدراتها وماذا تريد.

الهروب من الزواج القسري

عندما كانت جاسفندر سانجهيرا في الرابعة عشرة من العمر طالبة في مدارس مدينة ديربي في بريطانيا أخبرتها والدتها بأن العائلة ستزوجها لرجل لم تره قط. وكانت جاسفندر التي عاشت التجربة ذاتها مع أختها الكبرى تعرف أن هذا الأمر غير قابل للنقاش في عائلتها التي تعتنق الديانة «السيخية»، كما لو أنه حكم صدر وغير قابل للاستئناف على الإطلاق. لذا فإنها سوف ترسل كأي طرد بريدي لتتزوج في الهند. لم تقتنع جاسفندر وقررت ألا تستجيب لرغبات أهلها وانتهى الأمر بها أنها هربت مع شاب أصبح فيما بعد زوجها. ولم تكتف بشق عصا الطاعة وإنما ذهبت إلى ما هو أبعد من ذلك حيث تبنت أفكاراً مناهضة لكل ما اسمه زواج قسري. وقد خلقت جاسفندر أعداء كثيرين لها بدفاعها عن النساء الآسيويات في بريطانيا.

وتبوح بكل ما لديها عبر كتاب ألفته وحمل عنواناً مثيراً «العار». أرادت أن تلفت انتباه العالم إلى هذه النقطة التي ما زالت نساء الشرق تئنّ من وطأتها، لقد كشفت عبر قصتها التي ترى أنها قصة الكثير من الآسيويات كيف كانت ضحية عائلة مهاجرة لا تزال متمسكة بتقاليد الإجبار على الزواج.

«أخذت نفساً عميقاً لأتماسك وأقوم بهذه المكالمة التي أريد القيام بها منذ أسابيع. لم أعد أحتمل أريد أن أهاتف والدتي لأعرف هل افتقدتني هي ووالدي وهل ستطلب مني العودة إلى البيت. راودتني مثل هذه الهواجس لأنني كنت أشعر بالشوق لعائلتي وتخيلت أنها ستقول لي: ابق مكانك حبيبتي فنحن سنعرف كيف نصل إليك.

كانت الساعة تشير إلى السابعة مساء، في هذا الوقت تكون والدتي في المطبخ، وستكون أختي الصغرى لوسي تراقبها.. فتساءلت مع نفسي: «هل سألتها المدرسة عني». عموماً إن أبي سيكون في العمل. لكن هل أخبر أصدقاءه عن هروبي؟ بالطبع إنهم عرفوا لأن الأقاويل والشائعات كثرت منذ هروبي الذي مضى اليوم عليه شهران». «أتمنى ألا أكون قد آذيتهم بتصرفي هذا». بعد سلسلة الأفكار التي طاردتني، شعرت أن شجاعتي قد خانتني عندما أمسكت بالسماعة. تحاملت على نفسي فجاءني صوت أمي، فقلت لها: ماما هذه أنا جاسفندر، ومباشرة بدأت بالصراخ والبكاء، ثم قالت: كيف تفعلين ذلك، لقد جلبت لنا العار. لماذا علينا أن نعاني كل ذلك؟ كنت أبكي أيضاً لكنني استطعت أن أقول لها: ماما أنت تعرفين لماذا أنا تركتكم. فأجابتني بعصبية أتمنى أن تكون لك ابنة وتفعل الشيء ذاته معك، عندها ستعرفين ماذا يعني أنك تربين عاهرة. قلت لها: ماما سأعود لكنني لن أتزوج من هذا الرجل، لأن عمري

16 سنة وأريد أن أعيش حياتي وأذهب إلى الجامعة. ردت: إذن عيشي حياتك وحظاً سعيداً وفي نظرنا إنك قد مت. وأغلقت التليفون.

لم تحتملني ساقاي وجلست على أرض كابينة التليفون هل حقاً اقترفت أمراً شنيعاً بحيث وصل الأمر بوالدي إلى أن ينبذاني؟ وهل لم يعودا يحباني؟ وهل ارتكبت جريمة؟

عندما كنا صغاراً كان أربع منا ينمن في سرير واحد: أنا ولوسي وروبينا وياسمين، اثنتان في الطابق العلوي من السرير واثنتان في الأسفل. كان هناك ثلاث بنات أخريات في عائلتنا. باتشانو في الهند وبراكاش في لندن. أما جندا التي تكبرني بعشر سنين والتي تعتني بنا عندما تكون أمي في العمل فقد كانت تنام في سرير آخر في غرفتنا. في حين كان أخي بالبير في غرفة نوم أخرى ويعامل معاملة مختلفة عن معاملتنا. كانت والدتي تحضر كل شيء له، فيما نقوم نحن بغسل ملابسنا وإعداد طعامنا.

وما إن صار عمري سبعة أعوام بدأت أسأل لماذا كل شيء مختلف بالنسبة لبالبير؟ وبدأت بالاستفسار عن بقية الأشياء، فإذا كان السيخ يرون أن الجميع متساوون لماذا لا نكون كذلك في الواقع؟ ومن خلال النقاشات كنت أسمع بعض ما يتردد عن المجتمع الآسيوي وعاداته، فمثلاً سمعت عن زينب التي شاهدتها أمها تتحدث مع صبي في محطة الباص ولم يسمحوا لها بمغادرة البيت لمدة ثلاثة أسابيع. غير أن الشيء الأسوأ هو الاختلاط مع البيض لأن والدتي تقول إنهم لا يحترمون أنفسهم ولا يملكون أي أخلاق. كما تقول إنهم قذرون بأساليب قذرة.

أما الصبي الآسيوي يستطيع أن يمزح مع الفتاة البيضاء عندما يكون في طور النمو لكن عندما يكبر يجدون له العروس الآسيوية. وإذا خرجت فتاة آسيوية مع صبي أبيض وعرف عمها أو إخوتها فإنهم سيضربونها

ويضربونه لأنها جلبت العار للعائلة. ومن ثم سوف تندم لأنها لن تجد الرجل الآسيوي المناسب الذي يريدها. الجميع يعرفون ذلك وأنا عرفت ذلك منذ أن كنت في سن الثامنة.

لقد كان هم أمي الرئيسي المحافظة على اسم العائلة فيما كان والدي هادئاً يعمل طوال الأسبوع وفي عطلة نهاية الأسبوع يذهب إلى الحانة ليسكر. في بعض الأحيان يعود سعيداً ويجلس بيننا ويطلب منا أن نفتش في شعره عن القمل. ونتجمع حوله ويروي لنا القصص والنكات. كنت أخرج في بعض الأحيان مع والدي ويتحدث لي كيف كان مجيئهم إلى بريطانيا. «في الخمسينيات كان كل شيء مختلفاً. لقد طلبت منا الحكومة البريطانية المجيء إلى هنا. كانوا بحاجة إلى أيدٍ عاملة، ووفروا ظروفاً جيدة ووعدونا بحياة رائعة». غير أن والدي لم يجد كل شيء كما توقع فقد شارك في البيت الذي يسكنه آسيويون آخرون، وفي بعض الأحيان كان يصل العدد إلى 12 شخصاً في غرفة واحدة لأن أصحاب العقارات لا يريدون أن يؤجروا لهم.

جاءت أمي بعده بسبع سنين. لقد تزوجته وهي في الخامسة عشرة عندما توفيت زوجته الأولى ـ التي هي أختها الكبرى ـ بسبب لدغة حية. لم تكن والدتي تعرف اللغة الإنجليزية، ورغم أن والدي يعرفها إلا أنه يتحدث اللغة البنجابية في البيت، ونأكل الأطعمة البنجابية وأصدقاؤنا من البنجاب. وبالرغم من أننا كنا نرتدي الأزياء المدرسية السائدة في بريطانيا، تجدنا نرتدي الأزياء التقليدية في البيت ونترك كل مدينة دربي وناسها البيض وقذارتهم خارج جدران بيتنا.

وذات يوم دخلت البيت بعد عودتي من المدرسة فوجدت والدتي ترتب قطعة من القماش قالت إنها من عائلة زوج أختي «جندا». وفي الحقيقة إن جندا لم تر هذا الزوج القادم ولم تعرفه ولم تشاهد سوى

صورته التي قدمها أهله. وسألت متى وأين وكيف تم ذلك. أجابتني جندا: لا أعرف، فأنا لم أره حتى الآن.

لم أدرك أن أختي ستتزوج بهذه السرعة فما زالت مراهقة وعمرها **16** سنة. وبعد بضعة أسابيع أخبرتنا والدتي إن جندا قد ذهبت للهند لتتزوج هناك. وبعد فترة عادت جندا إلينا على أمل أن يحصل زوجها على التأشيرة ليأتي إلى بريطانيا. وتتحدث جندا عن تجربتها: «كان ينتظرني في المطار لم أعرفه لأن صورته تختلف عن كينونته الحقيقية وهو ما فاجأها. والشيء نفسه جرى مع أختي ياسمين. وخلال سنوات مراهقتي تزوجت ثلاث من أخواتي. وكانت أمي تزور كل واحدة منهن شهرياً. وهناك تبدأ شكواهن من أزواجهن، الأولى تقول: إنه رجل لا يطاق والثانية لم أعد أحتمل، والثالثة بالأمس صرخ بوجهي لأن طعامه حار.

وتأتي إجابة والدتي الجاهزة، هذا زوجك وعليك الاحتمال ومن واجبك الاهتمام بزوجك وعليك أن تقومي بكل واجباته. وليس من حقك أن تسألي عن شيء فيجب أن تحترمي زوجك وتحافظي على اسم عائلتك. ولم تفلح دموع وتوسلات أي من أخواتي بتغيير شيء.

وفي النهاية جاءت قصتي مع الزواج. كنت أدرس الرياضيات عندما جاءت أمي وعرضت علي صورته في مشهد لم أتوقعه. ألا تعتقدين أنه لطيف؟ ثم أردفت: إنه الرجل الذي ستتزوجينه. شعرت كما لو أنني صفعت. نظرت إلى والدتي التي ضحكت ثم نحّت الصورة جانباً، لذلك اعتقدت أنها تمزح. وفي الأسابيع التالية أصبحت أكثر إصراراً على ما قالته وواصلت حديثها موضحة بأنها سعيدة لأنها عثرت لي على مثل هذا العريس الجيد وأن من واجبي أن أتزوجه. أصابني الذعر أكثر فأكثر، فكرت بأخواتي الباكيات وأحوالهن البائسة وفكرت بضرب

زوجي لي ووالديّ لا يساعداني بشيء وشعرت أن حياتي تهرب مني. عندها قلت لوالدتي لا أريد الزواج وأرغب بإنهاء دراستي الثانوية والجامعية. لم تجب بشيء وضحكت.

وبدأت الأسئلة من صديقاتي في الدراسة تتوالى عليّ وهل حقاً سأترك الدراسة وأتزوج وكانت إجابتي واضحة جداً: كلا لأنني كنت أصلاً أستغرب ترك صديقاتي الدراسة لهذا السبب. كانت صورة الشخص الذي سأتزوجه على المنضدة ويرمقني بنظراته.. كان قبيحاً وقصيراً وعمره أكبر بكثير مني وله قصة شعر سخيفة. ولا أزال لا أعرف اسمه، ولم يكترث أحد ليخبرني به.

وبدأت أمي تعد الترتيبات اللازمة حتى من دون حضوري لأنها في ذلك الوقت كانت قد زوجت خمس بنات وجميع أخواتي كن يتساءلن ما الذي تختلفين به عنا؟ وحتى روبينا كانت مع الجميع تقول لي: فقط أفعليها كما فعلناها. عدت بذاكرتي للوراء لليلة التي سبقت ذهاب روبينا لعريسها. لقد هربت بحيث إن والدتي وجدتها مختبئة تحت السرير. وزعمت أنها اختفت لأنها تخاف الزواج في حين أنها تقف اليوم معهم. والدي لم يقل الكثير عن زواجي، إلا في بعض الأحيان عندما يعود سكران يضربني على خدودي ويقول هيا حبيبتي لا تحاولي أن تقاومي فكلنا عملنا ذلك.

وذات ليلة كانت أمي وجندا وإحدى عماتي يبدين إعجابهن بقماش الزفاف. شعرت بأن الأمور تقترب نحو نهايتها التي لا أرغب بها وعليّ أن أفعل شيئاً. فدخلت على والدتي وقلت لها: ماما أنا لن أتزوج، أريد أن أكمل دراستي وجامعتي.. وغضبت والدتي لأنني تحدثت معها بهذا الشكل ما جعلها تضربني بمقص الخياطة الثقيل. وكانت تصرخ وتبكي وتقول لعمتي: أنظري إلى تلك التي لا تخجل من نفسها. أما أختي جندا

فلم تتحدث عن زواجي الذي لا مفر منه سوى أنها قالت: لا شيء يتغير اكبري وواجهي الحقائق. شعرت أنها تخلت عني لأنها ربتني وأنا صغيرة وكانت قريبة مني جداً. ويبدو أنها أصبحت ملتزمة بواجباتها وسمعة عائلتها.

والشيء الوحيد الجيد في حياتي كانت صديقتي أفتار الهندية أيضاً التي كانت أمي لا تحبها. ربما لأن لديها موقفاً من عائلة أفتار. أتذكر أنه ذات يوم أخذتني أفتار إلى بيتهم حيث كان أحد إخوانها موجوداً. لم يتحرك في البداية بل نظر إليّ طويلاً ومن ثم منحني ابتسامة خجولة ونهض وقال: مرحباً أنا جاسي. ومنذ ذلك الحين كنت أذهب إلى هناك كلما استطعت ذلك. وجعلني الجلوس مع جاسي أشعر بأشياء غريبة لأنني لم أتحدث إلا مع أبي وأختي من قبل.

ومرة سألني جاسي: هل ترغبين في الخروج معي، وفي غضون ثوان أجبته نعم، حيث انحنى بشكل مفاجيء وقبلني قبلة سريعة. لقد كان أول لقاء مع جاسي ساحراً. لقد اتصلت بي أفتار وكان ينتظرني حيث اختفيت في المقعد الخلفي للسيارة حتى لا يراني أحد لأنه يعرف جيداً تقاليد المجتمع الآسيوي. كنت في الخامسة عشرة من عمري ولي صديق وهذا يعتبر خرقاً كارثياً في تقاليد العائلة. وخلال الساعات التي أقضيها معه كنت أنسى عائلتي ودروسي.

وذات مساء أخبرت والدتي بكل جرأة أني لا أريد هذا الزوج لأنني وجدت شخصاً آخر هنا. زمجرت وأمسكت شعري وصرخت في وجهي سوف تبقين في غرفتك، ولا تفكري بالخروج، ولن أثق بك بعد ولن تذهبي إلى أي مكان وحدك. وتوسلت والدي الذي كان ينظر إليّ بحزن لكنني أخيراً سمعت المفتاح يدار ويغلق الباب عليّ.

في الأيام الثلاثة التالية كانت الغرفة سجني، وعندما أريد الذهاب للمرحاض، عليّ أن أصرخ لكي يرافقني أحدهم ثم يعيدوني للغرفة. كانت لوسي تجلب لي الطعام. فيما أسمع صوت أمي تسألها من بعيد: من هو؟ وأين التقته؟ لا تحاولي أن تحمي هذه العاهرة. توالت الأيام إلى أن حدث ما لم أتوقعه، في البداية لم أسمع القرقعة على النافذة، لكن عندما أعيدت المحاولة بحجرات صغيرة، انتبهت فسحبت النافذة ونظرت للخارج كان جاسي يقف بالاتجاه المقابل للدار، لوح لي بيده فخفق قلبي. بعدها أشار لي أنه يرغب في أن نكون معاً ونهرب. ابتسمت وقد بدا لي ذلك مستحيلاً، فإلى أين نذهب وماذا نعمل ومن أكون من دون عائلتي!

وبعد أيام أخذتني والدتي مرغمة معها للسوق لعدم وجود أحد في البيت وعندما كنا نسير شعرت أن هناك من يتعقب أثرنا. في البداية لم أعرف إن كان رجلاً أم امرأة. وبعد دقائق شعرت أنه رجل بملابس امرأة وفي غضون دقائق لامست يده جسمي، وفي هذه المرة شاهدت وجه الشخص. لقد كان جاسي الذي وضع ورقة في يدي، قرأتها بعد عودتي للغرفة: أريد مساعدتك، نستطيع الهروب معاً، سأعتني بك انتظريني عند الساعة الحادية عشرة ليلاً.. جاسي.

فكرت إذا هربت هل سيغيرون رأيهم، وهنا نزلت إلى أمي وأخبرتها بأنني غيرت رأيي وسأتزوج. سماعها لهذا الخبر جعلها تتركني أن أكون حرة في التجول في البيت لكن الأبواب ما زالت مغلقة. وسمعت أمي تتحدث عن حجز الطيران وما إلى ذلك من أمور أخرى. وعندما كلمت جاسي بالتليفون قال لا يمكن أن تتزوجي غريباً سأعتني بك.

حزمت حقيبتي الصغيرة الموجودة تحت سريري ببعض ملابسي وأخذت صورتين لوالدي وابن أختي جندا لأني أحبه. أنزلت حقيبتي

ليلاً عن طريق الحمام إلى الحديقة وفي الصباح ذهبت والدتي للعمل وكان والدي في الحمام نزلت نحو الحديقة كانت الحقيبة قد أخذها جاسي. وعشت خلال الأيام التي تلت حالة من التشتت بسبب صعوبة القرار الذي أقدمت عليه.

وذات صباح استيقظت على صوت إغلاق الباب الأمامي للمنزل نظرت إلى الساعة فأدركت أن والدتي في العمل ووالدي ما زال نائماً لأن عمله كان ليلاً، فقلت إنها أختي لوسي التي خرجت للتو، لكنها هل أغلقت الباب خلفها أم لا؟. نزلت بهدوء فوجدت أنها لم تقفل الباب، صعدت على الفور وكتبت ورقة لوالدَي أخبرتهما بأني تاركة البيت لأنني حاولت كثيراً أن أفهمهما بعدم رغبتي بالزواج كوني صغيرة ولي طموح في إكمال دراستي لأجعلهما فخورين بي، ثم طمأنتهما بألا يقلقا عليّ وأتمنى أن أراهما ثانية. وخرجت من المنزل رغم علمي بأن جاسي كان لحظتها في عمله.

ومع أن ذلك يبدو رومانتيكياً غير أننا لم نكن روميو وجولييت، بل كنت أتمنى أن يتراجع أهلي عن زواجي ويسمحوا لي بإكمال دراستي كما يفعل الآخرون وذلك كان أملي. ولكن انتهى المطاف بنا أنا وجاسي في غرفة في نيوكاسل. ومع ترددي في إجراء المكالمة التي قالت لي فيها والدتي بأنني مت في نظرهم إلا أنني لم أدرك كم سيدوم العار الذي ألحقته بعائلتي. وبعد سبع سنوات عندما أحرقت أختي روبينا نفسها قالت لي والدتي: لا تأتي ولا ترينا وجهك لأنك ستزيدين الأمور سوءاً.

المليونيرتان

1 ـ ملكة بطاقات التهنئة

تجربة كل من «جيورجي فرانسس» و«جابريل روس» تكاد لا تصدق حينما يمر أحدهم على على العنوان فقط، إذ كيف لشابتين لم تبلغا الثلاثين أن تتحولا إلى مليونيرتين بزمن قياسي من خلال عمل يدوي قامتا بممارسته من خلال غرفة في داخل البيت!! والإجابة تأتي سريعة عند التعرف على قصة كل منهما.

تقول «جيورجي فرانسس» من جيلفورد ومؤسسة شركة القطن الأبيض لبطاقات التهنئة: عندما أدخل إلى متاجر هارودس أو سيلفرجس الشهيرة في لندن وأرى بطاقاتي المصنعة بيدي للبيع أشعر بأنها من اللحظات السعيدة والمثيرة وغير القابلة للتصديق، لأنه عندما بدأت خطواتي الأولى حيث كنت أصنع وحدي وبيدي البطاقات داخل غرفة نومي لم يدر

بخلدي أن أصل إلى هنا ولم أكن أحلم بحدوث مثل هذا النجاح الذي أوصلني إلى ما أنا عليه اليوم حيث أصبحت مليونيرة.

فبعد أن غادرت كلية ويمبلدون للفنون في عام 1999 أخذت كورساً دراسياً في الفنون، وبدأت أعد بطاقات للأصدقاء لأنني كنت أعشق تصميم الأشياء وأحب القطع واللصق والترتيب والابتكار لاسيما من الأشياء التي تحيط بي. ومن ثم وقبل أن أدخل إلى كلية القديس مارتن في لندن قضيت الصيف أتدرب في متاجر أوكسفام في جولدفورد. وكذلك كنت أشتري الحلق القديم والحلي الصغيرة التي أستطيع أن أصنع منها شيئاً من خلال لصقها على البطاقات لأقدم شيئاً مختلفاً تماماً عما هو موجود في البطاقات الاعتيادية التي يتبادلها الأصدقاء والعشاق.

وفي البداية أبدى الناس القريبون تعاطفاً كبيراً مع بطاقاتي التي أبدعها والكثير شجعوني على أن أبدأ التعامل التجاري وفعلاً أخذت مجموعة منها إلى متجر لبيع الحلوى في مدينة فرانهام وسمحت لي مالكة المتجر أن أترك بضعة أعداد منها لبيعها لأنها لم تكن واثقة من أن هناك من سيهتم بها.

وبعد عدة أيام اتصلت بي وأخبرتني بأن البطاقات قد بيعت جميعها، وطلبت مني أن أصنع المزيد منها. ولم أتردد في ذلك بل أخذت مجموعة أخرى إلى متجر للهدايا في المنطقة نفسها واستطاع صاحب المتجر أن يبيعها جميعاً. وشعرت أنه يتوجب علي أن أقضي النهار في صنع البطاقات وفي المساء أن أعمل كنادلة حتى يتسنى لي أن أحصل على المال كي اشتري المواد اللازمة لتجارتي التي بدأت تتسع رويداً رويداً.

وفي غضون أيام قليلة بدأت الطلبات الكثيرة تأتيني من المتاجر المحلية،وكانت الكميات المطلوبة كبيرة وخلال وقت قصير، الأمر الذي

دفعني إلى ترك الفصل الدراسي في كلية القديس مارتن والتركيز على عملي لأني وجدت من الصعوبة ان أوفق بين الاثنين. وعن طريق الصدفة أخبرني أحد الأشخاص أن أذهب بتصاميمي لأحد المعارض التجارية، لذلك عملت على تصميم (100) بطاقة بأنواع مختلفة.أقمت جناحاً صغيراً في معرض ساحة ايرل التجاري وبعد أن انتهى المعرض تقدم لي مالك متاجر مستقلة بعدد من الطلبات بلغت قيمتها حوالي **10** آلاف جنيه إسترليني.حينها شعرت بأني يجب أن أفكر بالأمر بجدية أكثر إذ كيف لي وأنا وحدي أن ألبي هذا العدد الكبير من الطلبات لا سيما أنني أقوم بكل أعمالي من غرفة نومي في المنزل الذي أعيش فيه مع والدتي.

وفي الوقت نفسه وجدت مساعدة مباشرة وفاعلة من والدتي التي وافقت على استخدام المنزل بأكمله حيث انطلقت لأعمل بكل الأوقات ولحوالي أربعة أسابيع. اشتريت مواد من النقود التي كنت أدخرها من عملي كنادلة. ومنذ عام **2002** استطعت أن أشارك في ثلاثة معارض تجارية سنوياً، وفي النهاية أخبرت بأني بحاجة للتعامل مع وكيل بإمكانه أن يصل ببطاقاتي إلى متاجر شهيرة مثل هارودس وسيلفرجس وبابرتشيس وهارفي نيكولاس. وفي الأخير وقعت مع جو بانستر.

لقد كان كل شيء مدهشاً وسرعان ما تهافتت علي الطلبات من متاجر كبيرة ومعروفة عالمياً ولكن بالرغم من ذلك ما زلت أقوم بأعمالي من غرفة نومي. ولأن الطلبات كانت كثيرة جداً حيث تضمنت آلاف البطاقات أصبحت لا أستطيع الإستمرار بشراء المواد من متاجر الفنون. وبدلاً من ذلك توجب علي الحصول عليها من المجهزين وذلك يعني أنه علي أن أخزن (25) ألف ظرف في غرفة نومي بحيث أن الداخل للمنزل أصبح يشاهد الظروف والبطاقات والمواد في كل مكان. وفي نهاية الأمر قرر والدي أن يبني لي أستوديو في الحديقة.

وبدأت أعمل طوال أيام الأسبوع من دون توقف وقد ضحيت بكل شيء من أجل عملي فليس لدي صديقة أو صديق ولا أخرج مع الأصدقاء كما يفعل الكثير من الشباب ممن أعمارهم في العشرينيات ولا أذهب حتى إلى لندن ونسيت حتى دراستي الجامعية فأنا أعمل وأحب عملي على نحو يفوق التصور. وعندما أشعر بشيء ما أو يتسلل إلى نفسي التعب أتذكر أن إحدى بطاقاتي التي صنعتها بيدي ستباع كل (10) دقائق في متاجر سيلفرجس. لذا ينتابني شعور كبير بالزهو يجعلني أنسى كل التعب. وكلما أخذت أعمالي تتوسع كنت أحصل على المزيد من الشهرة والتقدم وفعلاً بعد فترة حصلت على جوائز من صناعة بطاقات التهاني وذلك كان يعني بالنسبة لي المزيد من الشهرة والمزيد من الجهد.

وبحلول عام **2005** وعندما كنت في سن الخامسة والعشرين أصبحت أملك حوالي مليون جنيه وتلك كانت بالنسبة لي لحظة لا أصدقها. وفي الوقت الحاضر أصبحت شركة بطاقات القطن الأبيض أو **White Cotton Cards** تجهز أكثر من (**2000**) متجر في المملكة المتحدة. وأصبح يتوجب عليّ أن أضغط على نفسي كثيراً وخصوصاً عندما أتعامل مع متاجر هارودس أو عندما تطلب مني «كلتون كاردس» أن أصنع لها وجبة من البطاقات.

كما وجدت نفسي أستخدم لصالح عملي (**30**) فناناً ومصمماً ممن يعملون لحسابهم الخاص. كما أن والدتي تساعدني بإدارة كل العمليات. ومقارنة بما بدأت حياتي به حين كنت أعمل (**18**) ساعة في غرفة نومي أصبح لدي الآن وقت فراغ أكثر وبدأت أحصل على بعض الأوقات التي افتقدتها في السابق. واستعدت حياتي حيث أصبح لي أصدقاء أخرج معهم. كما إنني بين الحين والآخر أسافر برفقة أمي إلى نيويورك. وإذا رأيت أي شيء يعجبني أستطيع شراءه في حين كانت الأشياء التي

أحبها تراودني كالأحلام. فعلى سبيل المثال اشتريت سيارة مرسيدس فضية اللون نوع SLK كان سعرها حوالي 22 ألف جنيه إسترليني وأتطلع لشراء دار في جيلفورد بقيمة (300) ألف جنيه إسترليني.

وحينما أشعر بالتعب أذهب سفرات استجمام وراحة إلى أماكن معروفة مثل دبي وجمهورية الدومنيكان وأسكن في فنادق خمس نجوم وأستطيع أن أرعى أخي الأصغر بحيث أوصلته إلى الجامعة من دون الاكتراث لوعوده بأنه سيعيد الأموال التي أنفقها عليه حالياً. وفي الوقت الذي أرى أن بعض الناس الآخرين بدأوا تواً حياتهم العملية، أومن المحتمل هناك من يكافحون لكي يقرروا أين يتجهون ويكافحون من أجل الحصول على المال الذي يبدأون به، أجد نفسي بأن عملي سوف يتواصل من الأفضل إلى الأفضل وأن على الآخرين أن ينطلقوا.

2 ـ إمبراطورة حمالات الصدر

تقول «جابريل روس» صاحبة مؤسسة شركة صناعة حمالات الصدر والتي تعيش في تشلسي: لقد كان عملي وليد المزحة والصدفة لم أخطط له على الإطلاق.عندما كنت في جامعة دورهام في عام 1997

وكنت خلالها أدرس علم الآثار وخلال جلسة مع مجموعة من الطالبات وكنا نثرثر حول الملابس الداخلية، تساءلت إحدى صديقاتي عن الوقت الذي يمكن أن تستغرقه عملية صناعة حمالة الصدر في المصنع؟

حينها قررت أن أصنع حمالة الصدر بيدي وارتأيت أن تكون بمواصفات عملية في كل تفاصيلها من حيث استشعار الفتاة للراحة أثناء اللبس. وركزت على أن تكون غير اعتيادية وأن أخيط عليها شريطاً قرمزياً بدلاً من ربطها بالطريقة المعتادة. وفعلاً أكملت أول حمالة صدر وعرضتها على صديقاتي في الكلية. وأبدين إعجابهن الشديد بالطريقة

المبتكرة التي صنعت بها الحمالة الجديدة بحيث طلبت كل واحدة منهن أن أجلب لها واحدة.

وعندما تخرجت درست القانون لمدة سنتين في كلية جيلفورد للقانون ومن ثم حصلت على عمل في إحدى الشركات الكبيرة في لندن وواصلت هواياتي الأولى في أن أصنع حمالات الصدر لصديقاتي وبنات الجيران. وبعد ذلك أشارت عليّ إحدى صديقاتي التي لها اتصالات بمجلة **Vogue** المتخصصة بشؤون الموضة والأزياء أن أرسل إحدى نماذج حمالات الصدر التي أصنعها إلى المجلة. وحينما حانت لحظة النجاح لم أصدق فقد اتصل بي محرر الأزياء ليخبرني بأنهم يرغبون في تسليط الضوء على ما أقوم به. وبعد أن تم نشر الموضوع عن الحمالة في عام **1998** تلقيت حوالي **500** اتصال من مئات النساء ومن مختلف أنحاء العالم يطلبن شراء حمالة الصدر التي أصنعها بيدي والتي كانت تبلغ كلفة الواحدة منها حوالي (**100**) جنيه إسترليني. وبعد القيام ببضعة بحوث حاولت أن أستثمر المتبقي من قرضي الدراسي في أن أدفع مبلغ (**560.3**) جنيه إسترليني لإدارة شؤون عملية تصنيع الحمالة وذلك من خلال جهة مصنعة في مدينة نوتنغهام.

وبالرغم من أنه كان من المقرر أن أبدأ عملي في مهنة المحاماة إلا أنني طلبت رسمياً أن أدشن عملي كمصنعة لحمالات الصدر من غرفتي في منزل العائلة. وكان ذلك بالضبط في عام **1999** والمفاجأة كانت أنه خلال سنة واحدة بلغت العائدات **100** ألف جنيه إسترليني، وبلغ معدل نمو تجارتي **600** بالمائة غير أن كل الأموال العائدة أخذت تنفق على تطوير تجارتي بحيث إنني أحياناً لا أجد ما أستطيع إنفاقه.

وبالنسبة للسنوات السبع التالية كرست معظم حياتي لصناعة حمالات الصدر. وكانت لي كينونة مختلفة تماماً عن معظم صديقاتي

اللائي تخرجن وأخذن بالعمل في مهنة المحاماة بنجاح. في حين واصلت أنا العمل ليل نهار. وفي بعض الليالي كنت أسهر حتى ساعات متأخرة لأن القيام بإدارة تجارتك التي تخصك يضع عليك ضغطاً ثابتاً ومتواصلاً، لأن التفكير في هذه التجارة لن يدعك تنسى ما تقوم به. وحتى بعد أن بدأت ببيع مئات الآلاف من الحمالات لم أستطع أن أمنح نفسي شيئاً من الراحة. كما لم تكن لدي أي طاقة عاطفية أو جسدية نحو صديقاتي وذلك لازمني لعدة سنوات.

لقد كان الأمر في غاية الروعة بالنسبة لي في أن أقوم بشيء أحبه وخاص بي فقط. وبعد ذلك تلمست طريقي واستقطبت مجموعة من العاملين. وبدأت أستلم الطلبات من متاجر شهيرة في لندن مثل هارفي ونيكولاس وهارودس وفرينوك وهاوس وفريسر ودبنهامس. ورغم أن ذلك التحول كان مدهشاً إلا أنه كان هناك الكثير الذي يستحق أن أقلق عليه. وبعد مضي فترة تواصلت نجاحاتي ففي يوليو الماضي بعت مجموعة من حمالات الصدر إلى شركة سليما للملابس في ستافورد شاير ولا أزال أشرف على صناعة الحمالات ويُدفع لي راتب مقابل ذلك ولكنني ما أزال أضخ الأموال إلى قسم التسويق والتصميم في شركتي والذي من خلاله أتأمل أن أنقل تجارتي إلى مرحلة متقدمة.

وتقول جابريل روس: لم أسأل أي شخص أن يقدم لي المال لذلك فإنّ ما حققته كان في الواقع بكفاحي وحدي وبإمكانياتي المتواضعة. واليوم وبعد أن أصبحت أمتلك ذلك المال في يدي أشعر بأنها تجربة كبيرة وتستحق كل ذلك الجهد الذي بذلته. وحالياً بإمكاني أن أمنح نفسي الوقت لأحصل على الأشياء التي لم أفكر يوماً أنها ستكون في متناول يدي، أو حتى الأشياء التي كنت أفكر في بعض الأحيان أن تكون عندي لأمنحها لمن أحب.

وذات مرة حينما كان يتوجب عليّ الذهاب لإحدى حفلات العرس، وجدت أن الفستان الذي اشتريته لهذا الغرض كان غالياً جداً. ويبدو أنه كان لدي رغبة حقيقية في التنفيس عن أيام التعب التي قضيتها وأنا أعمل فقط في صناعة حمالات الصدر. كما أصبح لدي الوقت والمال الكافيان لكي أجلس في مطاعم راقية، وأن أتناول الطعام الذي يعجبني. وكذلك التقيت في الآونة الأخيرة بشاب رائع عمره (34) سنة وهو رجل أعمال وواحد من ثلاثة أشخاص أسسوا شركة أنوسنت درنكس وعرفت أنه من المقاولين الناجحين. لذا فدائماً نتحدث سوية عن الأعمال التجارية وكلانا يتفهم الضغوط التي يسببها العمل على حياة كل منا. كما أن قناعتنا واحدة في إدارة هذه الأعمال بنجاح.

بالطبع إن امتلاك المال يعني أننا نستطيع تحقيق معظم أمنياتنا ومنها تلك الأمنيات التي تتعلق بقضاء إجازات بعيدة. فعلى سبيل المثال ذهبنا معاً إلى كيرلا في الهند وذلك بمناسبة إعلاننا الخطوبة. وقضينا أسبوعين هناك من دون أن نستخدم التلفون أو التلفزيون أو الراديو وبذلك ابتعدنا عن العمل وأرغمنا أنفسنا على الابتعاد عن أي شيء يذكرنا بحياتنا اليومية. لقد كانت إجازة رائعة عوضتني عن الكثير مما فقدته خلال سنوات العمل.

لقد كانت في البداية صناعة حمالات الصدر مجرد هوس ولكن بعد الذي حققته معها قبل أن أصل إلى سن الثلاثين أنا غير متأسفة على كل دقيقة أمضيتها في هذا العمل الناجح.

امرأة القمامة

بالتأكيد أن المهنة التي اختارتها هذه المرأة الفلبينية لم تكن إلا اضطراراً لكنها استطاعت أن تقهر الحياة بالوقوف على جبل النفايات الذي يمنحها ثلاثة دولارات يومياً. وتمكنت من خلالها أن تأخذ على عاتقها مسؤولية توفير كامل الإحتياجات لعائلتها. إن هكذا موضوع هو محاولة لاحتواء المشهد برمته فضلاً عن الوقوف على حقيقة هذه المهنة ـ التي هي ربما الأشقى ـ ومن ثم الغوص في ثنايا وأسرار حياة امرأة لا تعرف غير هذه المهنة.

جاءت تيريزا جانوراس من قرية نائية لتعمل «كزبالة» في مانيلا، وربما ينظر إليها بازدراء من قبل بعض الناس من قريتها البعيدة التي هاجرت منها قبل أكثر من ثلاثين سنة مضت لتتجه صوب العاصمة مانيلا لكنها لم تتخذ هذا القرار إلا بحثاً عن حياة معيشية أفضل. انطلقت تيريزا تلك المرأة الأربعينية غير مكترثة لكل الأصوات نحو أكوام القمامة مدركةً أنها تكسب قوتها بهذه الطريقة ومقتنعة بعملها القاسي والمتعب.

وتقول تيريزا جانوراس ـ التي هي الآن في السادسة والأربعين من العمر وتعيل عائلة مكونة من خمسة أشخاص ـ كزبالين: يقولون عنا إن رائحتنا كريهة ويقولون إننا قطعنا كل هذه المسافة لنصل إلى مانيلا فقط لمجرد أن نعمل في أكوام القمامة.

تقيم تيريزا في منزلها الصغير الذي زخرفته بستائر غير منسجمة مع بعضها على الأرجح حصلت عليها من النفايات التي تعمل فيها، إذ تقول إنهم لا يعرفون أن هذه النفايات مصدر يجود لي بالكثير. ثم تضيف تأمل ذلك: نحن ليس لدينا رؤساء يشرفون علينا بل نعيش حياة حرة، فبالنسبة لي عندما أشعر بأني لا أرغب بالذهاب إلى عملي لا أفعل ذلك وأنا مضطرة. في هذا المكان يكون مصدر قلقك الوحيد هو كيف تبقى وكيف تؤمن قوتك اليومي، ولكن أكوام القمامة يمكن لها أن توفر لك كل احتياجاتك.

ويقول جميل جيملن المشرف على إدارة مستودعات القمامة: الجهاز الإداري للمدينة لديه برنامج يساعد الكناسين على إعادة إسكانهم في ولاياتهم الأم لكن معظمهم يفضلون العودة إلى هذا المكان ويضيف: في الولايات المتحدة لا توجد أسباب العيش كالتي توجد في المدينة لذا تجدهم يفضلون المدينة كما إنهم يحبونها.

وعندما تشرع تيريزا في عملها الذي يكون يومياً تقريبا تنزل في أعماق أكوام القمامة لمدة (11) ساعة تقريباً وعادة ما تنطلق مع خيوط الفجر الأولى. ويكون يوم سعدها عندما تصل حصيلة عملها إلى أكثر من ثلاثة دولارات. وتقول تيريزا: نحن نصرف كل ما نحصل عليه وإذا ما حالفني الحظ في يوم ما فإننا سنأكل ما هو جيد. ولكن في الأيام التي تكون بها الحصيلة غير جيدة فنكتفي بالأرز وعجينة السمك.

تلك المرأة «التي تشبه الطائر الدوري» النحيفة التي فقدت معظم أسنانها هي واحدة من بين (150) ألف شخص يعملون في القمامة أو كزبالين أو ممن يقومون بإعادة تدوير النفايات التي يصل حجمها إلى (700.6) طن تلفظها العاصمة مانيلا يومياً وتعد تيريزا مثال حياً عن الفقر والانهيار الريفي. وطبقاً لما يذكره بنك التنمية الآسيوي فإنه يتم دفن حوالي ثلاثة أرباع النفايات في حقول وأنهر كريهة الرائحة وخلجان النفايات. وتبدو مستودعات النفايات العشرة في المدينة لا تتسع لهذه الكميات الكبيرة إلا أنه لا توجد مواقع بديلة غيرها. ويعد المستودع الذي تعمل به تيريزا من أشهر المستودعات في المدينة ويبلغ ارتفاع مستودع «بياتاس» **30** متراً أو **100** قدم وهو عبارة عن جبل من النفايات والذي انهار بسبب الأمطار الموسمية التي سقطت قبل ستة أعوام وقد دفن على إثرها حوالي (200) شخص ممن كانوا يسكنون بعض الأكواخ القريبة التي قاموا ببنائها متجاوزين على الأراضي الحكومية.

وقد أدت تلك الحادثة إلى إثارة نشاط مدني غير اعتيادي بحيث حول مستودع «بياتاس» إلى حالة من النظام والترتيب مما جعله مثالاً للعديد من مواقع العمل المتخصصة بشؤون التنظيف في مانيلا. لقد تم تحويل جبل النفايات إلى منحدر مبرمج خالٍ من احتمالات الانهيار السريعة وتم نقل أصحاب الأكواخ إلى خارج حدود سياج أمني أصفر. وتم وضع لافتات توضيحية وعبارات تشير إلى أنه من لا يحمل بطاقة لا يسمح له بالدخول، وكذلك لا يسمح بدخول الأطفال دون سن الرابعة عشرة إضافة إلى العديد من الإشارات التوضيحية التي وضعت على جانب التل التي تحذر السائقين وتطالبهم بالتأكد من الفرامل، وأن يلقوا حمولتهم بسرعة.

كما ارتدى حراس الأمن فانيلات خضراء براقة وتحمل شعارات تنادي بحماية البيئة وعلى الجميع الالتزام. وكما هو حال معظم الزبالين

الذين يعملون هناك تضع تيريزا جانوراس حول رقبتها بطاقة تعريفية وعندما تصل إلى موقع العمل ينطلق صوت من مكبر الصوت الموجود في قمة الجبل يحييها بالنشيد الوطني.

ومن وقت لآخر ينساب من مكبر الصوت نغمات إلهامية آسرة تقول كلماتها: «هنا على قمة جبل النفايات يمتد خيط بين التراجيديا والفرح، يا فلبيني، أيها الفلبيني أظهر للعالم ما بإمكانك أن تفعله. أيها الفلبيني إنك مميز فلا تخف وكن فخوراً، نحن فلبينيون».

ولكن لا يمكن بأي حال إخفاء الحقيقة من أن مستودع النفايات والعمل الذي تقوم به تيريزا جانوراس قذر ومخز. تيريزا والزبالون الآخرون في هذا المكان يشاركون الذباب الذي يطير على شكل أسراب فوق أحشاء المدينة التي يستقبلها المستودع. وهناك حيث هذا المنظر يبدأون بحركات ثابتة: الانحناء ثم الوصول والاستدارة وتحريك القطعة التي تم تعيينها ثم رفعها والحفر وتصبح الحركة شبه إيقاعية انحناء واستدارة وانتقالاً وحينما تأخذ الشمس بالتسلق نحو كبد السماء تشعر تيريزا بأنها تغرق في مستنقع سحيق من القمامة لا نهاية له أبداً. وعندما تمطر السماء تؤدي الروائح العفنة التي تتطاير من حاويات الأسمدة الكيماوية إلى إجبار أي زبال له خبرة طويلة في العمل بالقمامة على ترك جبل النفايات والنزول والابتعاد إلى السفح. ويضع الزبالون أياديهم فوق وجوههم ويبدأ الوحل بالوصول إلى مستويات أعلى من الأحذية المطاطية الطويلة التي يرتدونها.

وتقول تيريزا في بعض الأحيان تصل الرائحة الكريهة من القوة بحيث أشعر بأنني أرغب في إلقاء نفسي من فوق. أما في الأشهر الجافة فإن شاحنات صبغت بألوان براقة كتب عليها: الخدمات بأحسن حال تصل إلى المستودع، وفي هذا الوقت تنشط الروائح الكريهة والأتربة المرضية

بحيث أنها تغلق حتى الرئتين. إن الدوار والسعال والريح القوية التي تجعلهم أشبه بالراقصين تحول الزبالين إلى طاحونات هواء حيث يتركون ظهورهم للهواء القوي الذي ينقل كل ما هو مضر بالصحة.

ويبقى الزبالون والذين يقومون بإعادة تدوير النفايات الأشخاص الذين يساوون بين الناس حيث يبددون وينكفئون على بقايا المدينة، وربما لأنهم يرونها ترجع ثانية كنفايات، وكأنها حلقة متكاملة تبدأ العملية مع وصول شاحنة القمامة التي عادة تأتي بشكل دوري ومتسلسل وبفاصلة زمنية لا تتجاوز الدقائق ويبلغ عددها حوالي (**400**) شاحنة يومياً وتنقل حوالي (**1800**) طن من القمامة إلى داخل مستودع باياتسا في غضون (**16**) ساعة تقريباً.

ويقول مدير إدارة المستودع جميل جيملين نحن نعرف من أي منطقة جاءت الشاحنة بمجرد شم الرائحة لأننا نعمل هنا منذ سنوات، إنها المهارة التي إكتسبناها بواسطة الشم. ويقوم الزبالون بعملية تنقية ونخل لمحتويات الشاحنة حيث يقومون بتمريرها على مقرات التخصص - وهناك من المخازن التي تبحث عن سكراب أسلاك النحاس والصحف القديمة وعبوات الألمنيوم وعلب الكارتون والإطارات والبلاستيك والدمى المكسورة والنوابض الحلزونية وفي النهاية كل مستلزمات الحياة العصرية.

والمعروف إن ملكة إعادة تدوير النفايات هي الفلبينية أميلدا ماركوس - التي كانت يوما ما السيدة الأولى - التي أصبحت الآن تصمم الجواهر من المواد البلاستيكية التي يتم رميها، وتقول أميلدا ماركوس خلال مقابلة أجريت معها في منزلها الفاره: إن العالم ينتج كمية كافية من النفايات التي يمكن إعادة تدويرها وصنع ما لا يتصوره الآخرون بواسطتها.

أما تيريزا جانوراس فهي متخصصة في الأطعمة المتعفنة والتي تأتي عادة من المطاعم والفنادق والتي تقوم بتوضيبها ووضعها في أكياس بلاستيكية ثم تنظيفها ومن ثم تبيعها إلى رجال وسطاء كطعام للخنازير.

كما أنها تتعامل أيضاً مع أنواع من المواد البلاستيكية التي تستعمل لأغراض التغليف حيث تجلبها إلى سكنها وتقوم بتنظيفها ومن ثم غزلها على شكل سلال لأغراض البيع.وتقول تيريزا: أقوم عادة بجمع العبوات النحاسية الصغيرة والقناني الفارغة وعلب الكارتون، غير أن الخردوات أسهل بكثير على الحمل.

وتظهر على رقبة تيريزا بطاقتها الصفراء المصفحة بحيث يتيح اللون المشفر إلى الفريق المعني بالدخول، ولأنها متخصصة في جمع نفايات محددة كالقناني البلاستيكية والأقداح، فإنها تتعامل مع مصانع معينة وتلك مسؤوليتها الأولى ولكن أي شيء يجده الكناس يصبح ملكه ويستطيع التصرف به.

وتضيف تيريزا: إنك تستطيع الاحتفاظ بالمواد التي بحثت عنها وجمعتها. وهناك أشخاص لا يأخذون سوى الملابس أو القناني الفارغة أو بطاقات اليانصيب. أو المواد الكيمائية المخصصة لأعمال تقوية التربة.

وكما يبدو أن الكناسين في فريقها يعرف كل منهم اختصاصه وتقول تيريزا عندما أجد خردوات خشبية أتركها لأحد أعضاء الفريق الذي يقوم بأخذها وعندما يجد أحد أعضاء الفريق مواد بلاستيكية أو مخلفات نايلون أو أطعمة فاسدة فإنهم ينادون عليها لتأخذها.

وعند انتهاء يوم العمل تنزل تيريزا من جبل النفايات باتجاه الأسفل حيث تتوجه إلى منزلها الصغير الذي يبعد مسافة كيلومتر ونصف عن مركز عملها. وينتظرها هناك كل من زوجها العاطل عن العمل وأبناؤها

المراهقون الذين لا يعملون أيضاً في حين أن ابنتها المراهقة تدرس في إحدى مدارس المدينة.

وتقول تيريزا: نعم في الفلبين إن ذلك أمر عادي وليس بالغريب أن تقوم امرأة بمساعدة الرجال في العائلة الواحدة. وتضيف ليس بإمكان أحد أن يجبرهم على العمل، وحتى في الولايات المتحدة يحدث الشيء نفسه فإذا كان الزوج لا يعمل فإن على الزوجة أن تجد طريقة ما لتقدم المساعدة للعائلة.

ويقول زوج تيريزا أنه يعمل في بعض الأحيان كنجار ولكنه يستدرك بأنه تقدم به العمر على العمل غير أنه ليس سوى (47) عاماً ولا يكبر زوجته إلا بسنة واحدة. وعندما تكون تيريزا خارج المنزل يبقى الرجال العاطلون في البيت النظيف. ومع أنه لا يحوي سوى الأشياء البدائية إلا أنه من النظافة بحيث لا تصدق بأنه يقع على حافة جبل القمامة. كما أن غرفه الصغيرة خالية حتى من الغبار. وفي البيت هناك أيضاً مطبخ مرتب وكلب نظيف إضافة إلى هرة صغيرة جميلة. أما أدوات المطبخ فعلى درجة من النظافة رغم أنها قليلة جداً. ومع أن تيريزا تقضي أكثر من (11) ساعة في جبل القمامة مع الذباب والقاذورات إلا أنها تدخل إلى بيت يخلو نهائيا من أي حشرات باستثناء عندما يكون الجو حاراً حيث تجلس تيريزا تجدل السلال البلاستيكية حتى لا يجد البعوض له طريقاً للدخول في منزل امرأة القمامة.

حبيسة الظلام ستة عشر عاماً

يستطيع الناس في معظم الأحيان التعايش ـ وإن كان ذلك على مضض ـ مع أمراض الحساسية التي يعانون منها، لكن في القصة التي ترويها لنا البريطانية كاتي غرين التي تبلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً سنجد أننا أمام نوع آخر من الحساسية النادرة والعدوانية أضطر تلك الفتاة إلى أن تعيش معظم طفولتها ومراهقتها في الظلام حتى تتجنب الضوء في جميع الأوقات. وفي الحقيقة إن ما أسماه العلم بحساسية الشمس أحالت حياة كاتي غرين جحيماً. وكانت تلك الفتاة لا تستطيع الخروج إلى أي مكان ولا تستطيع ارتداد إلا ملابس معينة، وقد لقبت بفتاة القناع لأنها ظلت طوال فترة المعاناة لا تستطيع خلعه إلا في مناسبات نادرة. وكانت مجرد أن تتعرض بشكل بسيط إلى الشمس فإن حياتها تضحي في خطر. وقد عانت كاتي من مشاكل عديدة من بينها الصلع وانعدام الأصدقاء. وهنا تروي كاتي بنفسها تفاصيل حياتها بسبب هذا النوع.

منذ اليوم الذي ولدت فيه في يوم من أيام يوليو القائظة أدركت والدتي أن هناك خطأ ما أشكو منه، حيث كنت أصرخ بلا توقف، ثم يأخذ لون جلدي بالتحول إلى الاحمرار من شدة الحك.

وفي البداية عزا الأطباء حالتي إلى نوع من اليرقان وأوصوا بوجوب تعرضي لكميات كبيرة من أشعة الشمس. لكن عند خروجي إلى حديقة منزلنا الذي يقع في ستانلي، في فلينتشير، في ويلز، تطورت الحالة أكثر وتفجرت عناقيد من الغضب كانت عبارة عن قيح جلدي.

وعندما أصبحت في الشهر الثامن من عمري تمت إحالتي إلى طبيب أخصائي في الجلد في غلاسكو. وقد تم تشخيص الحالة بأنها حالة خلقية منذ الولادة تعرف بورفيريا الكريات الحمر، وهي نوع نادر من حساسية الضوء. كما أن الأشعة فوق البنفسجية المتولدة من أشعة الشمس، تعد الأكثر خطورة بالنسبة لي. وفي ذلك الوقت الذي ظهرت فيه حالتي لم يكن هناك سوى 52 حالة تم تسجيلها في جميع أنحاء العالم. ومنذ تلك اللحظة كان بيتنا قد تحول إلى كهف مظلم. جميع النوافذ مغطاة مع مرشحات للأشعة فوق البنفسجية وتم تغطيتها بستائر سوداء اللون غامقة. وكانت والدتي تستخدم المصابيح الكهربائية ذات الإضاءة المنخفضة جداً فضلاً عن المصابيح المكتبية التي تكون مختفية ومن دون ضوء مباشر، كما أني كنت أشاهد التلفزيون بسطوع خافت. ولم تكن بشرتي فقط عرضة للحرق، وإنما حياتي كلها كانت في خطر.

وكان على الطحال أن يعمل على نحو إضافي لمساعدة جسمي على مكافحة العدوى الناجمة عن التعرض للضوء. وهذا من شأنه أن يضع ضغوطاً على أجهزة الجسم الأخرى، وكان من الممكن أن أتعرض إلى الغيبوبة في أي وقت.

ومع ذلك كنت طفلة سعيدة لأنني لم أعرف حقيقة ما أشكو منه. كانت والدتي لا تأخذني إلى الشاطىء أو إلى الحديقة إلا بعد حلول الظلام فقط. وقامت باستئجار المسبح المحلي للمدينة التي نسكنها وذلك بعد إغلاقه حتى أستطيع ممارسة السباحة عندما تكون الأضواء قد أطفئت فيه. وذات يوم استطاعت أن تقنع مدير حديقة الحيوان أن يفتح أبوابها من أجلي لليلة واحدة حتى أستطيع أن أتجول عندما لا تكون هناك أية أضواء. وفعلاً حينها شعرت أني من مستوى كبار الشخصيات. وقد هيأت العائلة لي كل ما تستطيع حيث، كان لي معلم خاص يأتي إلى البيت لمساعدتي، وبينما كانت أختي الكبرى جولي، وبنات عمي يضمنني إلى كل شيء يقيمنه، في حين من جانبي كنت أتوق إلى تكوين أصدقاء وأن يدعوني إلى حفلاتهم.

وعندما صرت أكبر سناً تكوَن في داخلي المزيد من الإحباط. وصباح أحد الأيام وعندما كانت والدتي تنشر الغسيل في الخارج ركضت ومن دون أن أدري إلى الحديقة. وفي الحقيقة أنني لم أتحرك سوى مسافة قصيرة جداً لا تتعدى بضع أقدام عن البوابة حيث سارعت والدتي إلى الإمساك بي حتى لا تأخذ الأمور طابعاً آخر على جلدي الذي بدا وكأنه احترق في غضون هذه الثواني القليلة. وقد أحالني ذلك إلى الإصابة بحالة من الهلع لشدة المرض، وقد وضعت والدتي الضمادات في كل مكان من الجسم لتخفيف حدة التقيحات.

وعندما بلغت الحادية عشرة من العمر تدخلت السلطات المحلية واتخذت قراراً يقضي بوجوب أن أتفاعل وأتبادل العلاقات مع غيري من الأطفال. وفعلاً قد تم ترتيب غرفة لي في المدرسة الثانوية المحلية، وزودوا النوافذ بمرشحات الأشعة فوق البنفسجية وبدأت أمارس بعض النشاطات. وقد تم صنع مظلة واقية مصنوعة من المطاط لتغطي رأسي

والكتفين وصولاً إلى صدري مع مرشحة صغيرة حمراء للأشعة فوق البنفسجية عبر القناع الواقي لعيني الذي يتيح لي النظر من خلاله.

وأثناء اليوم الأول لالتحاقي في المدرسة أقدم صبي على ضربي في وجهي، ووصفني بمصاصة الدماء. وقد أصبحت أُعرَف باسم فتاة القناع بسبب المظلة المطاطية التي أرتديها.

وبالرغم من أنني كنت أختبئ تحت قناعي، إلا أنني دائماً ما أرتب شعري وأضع بعض مساحيق التجميل. وكنت أحب الموضة لكني لا أستطيع أن أرتدي التنورة أو السترة لذلك كنت أشتري المعاطف بدلاً من ذلك. وظللت أسيرة الظلمة طوال فترة طفولتي ومراهقتي وكان الضوء الذي يحبه الناس هو العدو الأول الذي استطاع أن يحيل حياتي جحيماً.

وعندما بلغت السادسة عشرة من العمر تغيرت حياتي للأبد. لقد بدأت أعمل في مقصف للحلويات في داخل المدرسة خلال فترة دراستي في المستوى الأول. وكان المقصف عبارة عن غرفة مظلمة بنافذة صغيرة. وأعلم أنها تجربة محفوفة بالمخاطر ولكن كنت أخلع القناع لمدة ساعة إذا شعرت بأن الجو حار جداً بالنسبة لي. غير أن المذهل في الأمر إن جلدي لم يصب بتلك التقرحات القديمة. وهنا سمحت لنفسي بأن أعطيها بصيصاً من الأمل عبر ذلك التحسن الذي بدأ يطرأ على حالتي.

وبعد بضعة أشهر قليلة وعندما كنت أتجول في البلدة في حوالي الساعة السادسة مساءً، شعرت بأن هناك حاجة ملحة في داخلي تدفعني إلى اتخاذ قرار بإزالة القناع من رأسي. ومنذ تلك اللحظة ظللت أخضع نفسي للاختبار تلو الاختبار لعدة أشهر وذلك من خلال فتح النوافذ والوقوف بالقرب منها ولاحظت أن بشرتي وجلدي بخير ولم أشعر بحصول أي تغيير.

وبعصبية وبحماس خلعت القناع من على رأسي. ولأنني قضيت كل حياتي الماضية خلف الستائر وفي الظلمة شعرت لحظتها كما لو أني عارية وأسير وسط العالم. ثم مشيت مسافة قطعت خلالها خمسة محلات تجارية لأتأكد مما يدور حولي وغمرتني حالة من اللاتصديق لما يحدث. ثم انفجرت ضاحكة فرحة فيما كانت الدموع تهطل على وجهي. كنت الوحيدة في هذا العالم على الإطلاق التي تعيش الحياة من خلال نافذة صغيرة حمراء، أما الآن فإني أرى هذا العالم لأول مرة. وبدا كل شيء وكأنه ألوان فنية وانتابني شعور غامر بالفرح أحسست أنه مرعب إلى حد الجمال.

وكانت الأخصائية التي تشرف على حالتي النادرة جداً سعيدة لمواصلتي الخروج من دون القناع لكنها آثرت نصحي بالبقاء في الظل وارتداء نوع من النظارات الخاصة في جميع الأوقات. كنت أدرك أنها كانت على حق ولكن جزء مني، يشعرني بأنني اعلم إلى أي مدى يمكن أن أدفع جسدي ومقدار ما أستطيع تحمله. ولأنني أُخبرتْ وأنا ما أزال طفلة من أن عمري المتوقع أن أعيشه هو نصف ما سيعيشه الناس الآخرون، فأعتقد أنه من الأفضل العيش حياة كاملة حتى سن الأربعين بدلاً من أن أعيش نصف حياة وأبلغ الثمانين من العمر.

وبدأت في أكثر الأحيان أحاول الخروج من دون القناع، ودائماً ما كنت أرتدي النظارات الخاصة من أجل تأمين الحماية اللازمة. حتى أنني استمتعت لأول مرة بحفلة شواء مع الأسرة. وكنت أقوم باختبارات الدم الأسبوعية للتأكد من أنه ليس هناك أي ضرر.

بعد ذلك، وعندما أصبح عمري 18 سنة، حجزنا لقضاء عطلة عائلية في تينيريف. كنت أعرف جيداً أن أخذ أي حمامات شمسية ستكون نتائجه وخيمة بل ربما قاتلة لكن كان مجرد الجلوس في الظل، وارتداء

التنانير الطويلة والبلوزات الخفيفة ذات الأزرار أمراً في غاية المتعة بالنسبة لي أولاً ومن ثم لجميع أفراد العائلة. وذات مساء شاهدت الغروب من شرفتنا وتدفقت الدموع من عيني بسبب هذا المنظر الجميل الذي لم يدر في خلدي من أنني سأنظر اليه يوماً ما.

وعندما عدت إلى الوطن أقمت كماً هائلاً من العلاقات والأصدقاء. ولم أعد تلك الفتاة التي وصمت بفتاة القناع بل تغيرت تماماً. وعندما صار عمري **20** سنة، التقيت بجيمي الذي أصبح شريك حياتي. وتزوجنا بعد ثلاث سنوات. وفي أغسطس **2003** ـ أصبحت حاملاً منه. وقد حذرني الأطباء من صعوبة الولادة بالنسبة لي، لأن بشرتي تفتقر إلى المرونة اللازمة مما قد يتسبب ببعض المشاكل إثنائها. وعندما أنجبت أبنتي لوتي بعملية قيصرية، شعرت كما لو أني المرأة الأوفر حظاً في هذه الدنيا. وعندما أنظر إلى نفسي وحالتي الآن أعتقد أنني مثل أي فتاة أخرى في عمري.

ومع ذلك فإذا نظرنا عن كثب، إلى جلد يدي فستجد أنه منكمش جداً ولا يمكنني أن ألم أصابع يدي لأكور قبضة كما يفعل الناس كما أن أصابعي أقصر قليلاً عما هي عليه عند الناس الآخرين بسبب الحروق التي تعرضت لها أيام الطفولة عندما كانت تلازمني حالات حساسية الجلد.

إن عدم التعرض إلى ضوء الشمس يعني علمياً أن هناك نقصاً في فيتامينات سي ودي، وذلك من شأنه أن يجعل عظامي ضعيفة، وأسناني مشوهة فضلاً عن معاناتي من تساقط الشعر. ولكن بعد أن قضيت الستة عشر عاماً الأولى من حياتي في الظلام، فإن ذلك يجعل كل يوم أغلى من أي وقت مضى.

العائدة من الجنون

عاشت «كارين أوفرهيل» الرعب كل الرعب وهي تحاكي تلك الأصوات التي قد تكون اختلقتها مكرهة لا بطلة حيث بلغ بها الحال أنها قررت الانتحار لتتخلص من كل هذه الأصوات التي تستحوذ على دماغها. وعندما دخلت كارين أوفرهيل إلى عيادة الطبيب النفسي ريتشارد باير في عام 1989، اشتكت في البداية من فقدان الذاكرة فضلاً عن بعض الآلام الجسدية وحالة الاكتئاب التي تسيطر عليها. وأكدت على أن هناك أجزاء من حياتها اليومية تكون في عداد الأشياء التي لا تستطيع أن تستذكرها. وغالباً ما تجد نفسها في أماكن لم تتذكر أنها ذهبت إليها من قبل. في البداية كانت تلك هي الصورة الأولية التي رسمتها لحالتها النفسية والجسدية أمام الطبيب النفسي، الذي أدرك في نهاية المطاف، أن كارين، التي كانت على وشك الانتحار، بداخلها العديد من الشخصيات. وعندما وضعها الطبيب النفسي «ريتشارد باير» تحت التنويم المغناطيسي، كشفت تلك الشخصيات البديلة عن نفسها.

وفي الحقيقة إن كتاب ألفَ بعنوان «زمن التحويل» يوثق المهمة الشاقة للدكتور باير في رحلة العلاج التي قضاها مع تلك المريضة، وكيف أنه استطاع إيجاد العلاج اللازم الذي كان كافياً ليجعلها تولد من جديد.

أكثر الحالات النفسية غرابة:

في الخطوات الأولية للعلاج كان على الدكتور النفساني وبشكل ما أن يكسب ثقة كل من السبع عشرة شخصية الموجودة في داخلها ومن ثم يتحول إلى إقناعهم بضرورة فنائهم وإزالتهم.

في البداية استطاع أن يشخص بأن كارين مصابة باضطراب الشخصية المتعدد.ثم تمكن من أن يضع أمامها سبع عشرة شخصية منفصلة تتوارى فعليا في ذاتها وهو ما جعله أمام إحدى أكثر الحالات النفسية غرابة والتي تعد نادرة الحدوث. وكما يبدو أن التراكمات النفسية التي عاشتها كارين في مرحلة من مراحل الطفولة وتعرضها للاعتداء الجسدي من قبل أحد أفراد العائلة قادت إلى هذه النتيجة الدراماتيكية على الصعيد النفسي. وعن تفاصيل قصتها تروي تقول كارين عشية عيد الميلاد في عام **1989** ذهبت في رحلة إلى لاس فيغاس مع زوجي وبعض الأصدقاء وتركنا أطفالنا في البيت. وفي البداية شعرت أنني يجب أن أذهب للفراش مبكراً لأنني لم أكن على ما يرام، ولكن خلال وقت متأخر من المساء وجدت نفسي في مكان آخر من الكازينو وهو ما لا أجد له تفسيراً. وأثار علامات استفهام في داخلي عن كيفية وصولي إلى هذا المكان.

وعندما استطاع زوجي أن يعثر علي في الكازينو وجد معي في حقيبة اليد مبلغا يصل إلى حوالي **2500** دولار في حين أني انطلقت بمبلغ **25** دولاراً. وعليه كان لابد من اختلاق الأعذار وأعطيه سبباً لعدم وجودي في

الغرفة، لاسيما أنني ببساطة لم يكن لدي أدنى فكرة عن كيفية حدوث ذلك ووجودي في هذا المكان.

كانت هناك وقائع كثيرة أخرى مشابهة حدثت في حياتي في ذلك الوقت، ففي أحد الأيام غادرت المنزل لتسوق بعض الطعام غير أني وجدت نفسي في متجر للملابس اشتري لابني قبعة. ولم أستطع تذكر كيف ومتى غيرت قراري!! كما كنت في بعض الأحيان التقط رواية ومن ثم أكتشف أن مؤشر القراءة وصل صفحات متقدمة في حين أني لا أتذكر ما قرأته على الإطلاق. وذات مرة وجدت سكيناً تحت وسادتي وعجزت أن أجد تفسيراً لسبب وجودها في هذا المكان.

الزيارة الأولى للطبيب النفسي:

بعد ولادتي لطفلي الثاني بدأت الأمور تأخذ منحى آخر من حيث المزيد من النسيان وتوالي الأحداث الغريبة بحيث أصبحت على حافة اتخاذ قرار بالانتحار، وبلغت الهستيريا في داخلي مبلغها عندما صرت لا أتذكر زواجي أو ممارستي لحاجاتي الجنسية الاعتيادية مع زوجي. كما أني لم أعد أتذكر أي شيء عن طفولتي. وعندما كان عمري 29 عاماً زرت الطبيب النفسي ريتشارد باير في شيكاغو الذي أخبرني أنها الوسيلة المثلى التي انتهجها عقلي ليعالج الألم الفظيع الذي أشعر به من جراء تعرضي لاعتداء جنسي من قبل ذكور في عائلتي عندما كنت طفلة.

وخلال جلستي الأسبوعية طلب مني أن أدون ملاحظاتي عن الأوقات التي أجد نفسي خلالها بأوضاع غير اعتيادية. وفي ليلة يوم جمعة كتبت التالي: الآن هي الساعة الثانية ليلاً ولا أعرف أين أنا ولا كيف أتيت، ولا أعرف اسم المدينة الموجودة فيها. هل أطلب المساعدة أم أواصل السير إلى أن يبدو هناك ما هو مألوف؟ لا أستطيع الاتصال بزوجي لأنه لن يفهم

ما أعاني منه، أنا وحيدة ومرعوبة، أقف في محطة تعبئة وقود هناك سيدة في داخل المحطة، سوف أسألها. كانت السيدة متعاونة وعرفت الآن أين أنا. نحن سنعود للبيت، حسناً".

الضمير نحن كشفت المستور وتشخيص الحالة علميا:

في الحقيقة إن استخدامي لضمير الجمع نحن في ملاحظاتي ـ علماً أني كنت وحيدة في تلك الليلة ـ أثار انتباه الدكتور. لذلك عندما قام الدكتور باير بجمعها مع المعلومات الأخرى التي زودته بها جعلته يتساءل عما إذا كنت أعاني من اضطراب الشخصية المتعدد.

وأعتقد باير أنه عندما أضيع الوقت قد أكون لا أجد سهولة في أن أعيد الاقتران بنفسي وإنما أتحول إلى شخصية أخرى. وبعد عدة شهور واجهت فعلياً ما ذهب إليه الدكتور من شكوك. وعندما ذهبت إليه في جلستي الأسبوعية قدم لي الدكتور باير رسالة تسلمها عبر البريد وكُتبَت بخط طفلة صغيرة جاء فيها:

عزيزي الدكتور باير اسمي «كلير» وعمري سبع سنوات أنا أعيش داخل كارين، وأصغي لحديثك معها على الدوام، وأرغب في الحديث معك لكن لا أعرف كيف السبيل إلى ذلك. والمفاجأة في هذه الرسالة أن عنوان المرسل الذي وضع على الظرف هو عنواني. وبالرغم من عدم تذكري كتابة الرسالة وبالرغم من أنها كُتبَت بخط طفلة صغيرة لكني تيقنت غريزيا من أن المرسل هو أنا. وقد صدمني الأمر جداً واعتقدت حينها أنه سيغمى علي.

وللحظات قليلة راودني شعور بالهلع من جراء اعتقادي أن الدكتور باير ـ وهو الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أثق به ـ سيتخلى عني

بسبب تطور المشاكل النفسية في داخلي لكن العكس هو الذي حصل فقد شرح لي تفصيلياً لماذا بات مقتنعاً تماماً الآن بحالتي؟.

لقد أخبرني من أني كنت أعاني من اضطراب الشخصية المتعدد والدراسات تعتقد أن السبب الشائع هو التعرض لاعتداءات جنسية في الطفولة. وأوضح بأنه إذا عاش شخص ما مع انتهاك خطير ودائم، في بعض الأحيان يحاول أن يختلق شخصية بديلة ليتماشى مع الموقف. وحسب تحليله العلمي أني استطعت أن أطور سلسلة من الشخصيات الوهمية المتخيلة، أو البديلة، والاستيلاء على حياتها لأحصن نفسي من الألم، وفيما بعد تجعلني في منأى مؤقت عن تلك الذكريات الرهيبة. وعندما يحدث شيء سيىء، فإنها تفصل نفسها وتخلق شخصية أخرى للتعامل مع الصدمات.

الخوف من الاتهام بالجنون:

وأشار الدكتور إلى أن مرضى اضطراب الشخصية المتعدد يحاولون إخفاء أعراضهم خشية أن يصنفوا كمجانين لذلك في بعض الأحيان تأخذ شخصية بديلة في الظهور. أما كارين فتقول أنها من خلال رسالة كلير التي بعثتها للطبيب النفسي ومن دون أن تدري أدركت بأن هناك دلائل ومؤشرات من أن جزءاً ما في داخلها يريد أن يُظهر في النهاية الحالة للملأ. وفعلاً بعد الرسالة بدا أن هناك مرحلة تحول أخذت تحدث." وعلى حين غرة بدأت أستشعر أكثر الشخصيات الأخرى الموجودة في داخلي لا سيما في المساء والليل، وأصبحت أستلقي على ظهري وأراقب أدائي. وحتى الأشياء الروتينية مثل طبخ الطعام وأعمال البيت وإيصال الأطفال إلى المدرسة بدت غير اعتيادية في كثير من الأوقات لأنها كانت تنفذ بواسطة أجزاء أخرى مني. أعرف أني قمت بهذه الأشياء آلاف

المرات لكنني أشعر في الواقع لم أقم بها على الإطلاق. وفي الليل أسمع أصواتاً مختلفة في رأسي تناقش أحداث اليوم وهي الأحداث التي لا أستطيع تذكرها أبداً. رغم أنه يبدو من الغريب أن يكون ذلك نهجاً لكل هذه الشخصيات المختلفة في أن تتقاطع مع بعضها البعض.

17ـ شخصية في داخلها:

وبدأت أحاول تحديد الأصوات المختلفة الموجودة في داخلي وخرجت بقائمة سلمتها للدكتور باير. وتضمنت القائمة أربعة أطفال (ثلاث بنات والرابع صبي) ومراهقتين (جولي وساندي) وفتاة في الواحد والعشرين من العمر ورجلاً وامرأة في الثالثة والأربعين ورجلاً آخر شديد العصبية. وساعدت القائمة في إيضاح الأشياء كلها. وأدركت الآن أن هناك **11** شخصية على أقل تقدير أستطيع تمييزها في داخلي. ولدى هؤلاء أسماء وأعمار وسمات شخصية محددة ومنفصلة ولكل واحدة تاريخها الشخصي. وبدأت أرى ما تفعل هذه الشخصيات وكيف تتصرف، لكن الأمر كان في غاية الاستنزاف والإزعاج بالنسبة لي عند التحول نحو الشخصيات البديلة طوال الوقت. وكان الأمر يتطلب مني الاعتماد على شخصية واحدة فعلى سبيل المثال ـ في حالة القيادة ـ إذا كانت الشخصية مشغولة فذلك يعني أنني والشخصية لا نستطيع الذهاب إلى أي مكان. وخلال هذا الوقت سألتقي الناس الذين يزعمون أنهم يعرفونني ولكني لا أعرفهم على الإطلاق، وإنما فقط أستطيع أن أفترض أنهم مرتبطون بصداقة مع أجزاء أخرى من شخصيتي.

وبحلول خريف **1994** لم أعد أستطيع احتمال الفوضى العارمة في داخلي وشعر الدكتور باير أنني مستعدة لمعالجة حالتي بواسطة التنويم المغناطيسي وهي الطريقة المجربة في اضطراب الشخصية المتعدد. وتحت

التنويم المغناطيسي كنت قادرة على تحديد الشخصيات الإحدى عشرة البديلة وأن أستخلص المزيد عنها. ومع مرور الوقت ظهرت ست شخصيات جديدة، من خلال رسائل أرسلت إلى الطبيب المعالج ومن خلال جلسات التنويم المغناطيسي، أصبح مجموع الشخصيات الموجودة في عقلي الباطن 17 شخصية. وكل واحدة ظهرت كانت قد تكونت لتساعدني في التعاطي مع حالات محددة وصعبة في حياتي وتجربتي.

خلاصة محنة كارين

عندما كانت كارين طفلة، تخنق ويلقى بها في مواجهة الحائط ويقوم والدها، بتكميم فمها وربط ذراعيها وساقيها بالشريط. وهي تلميذة، كانت تقول إن أبي وجدي كانا يغرزان الدبابيس في ساقي. كانا يخضعانها لطقوس مروعة كحبسها داخل نعش أو تركها مربوطة إلى طاولة فضلاً عن الاعتداء الجنسي الذي تتعرض له باستمرار. وفي سن 11 عاماً، تم بيع جسدها لرجال آخرين. بالنسبة لمعظم حياتها فأن ذكريات كارين المؤلمة كانت واضحة. وكنت أخشى أن أقول لأي شخص عن حقيقة ما أتعرض له خشية أن يقتلني والدي الذي كان لا تتوقف تهديداته.

الدكتور والشخصيات الأخرى

خلال السنوات القليلة التي تلت حاول الدكتور ـ عندما أكون تحت التنويم المغناطيسي ـ أن ينفق وقتاً أكثر مع شخصياتي المختلفة بدلاً من أن يكون كلامه معي. وكان ذلك يسبب لي صداعاً شديداً لأن الأجزاء لا تستجيب دائماً، والبعض منها تتمرد. وقد ساءت حالتي أكثر بدلاً من أن تتحسن. لكن وعلى نحو بطيء قدم كل شخصية إلي وبدأت الحديث وبدأ هو الاستماع.

بعد ذلك، في صيف 1996 تسلم الدكتور باير مذكرة من هولدون ـ شخصية ذكورية عمره 34 سنة من بين مجموعة شخصياتي الأخرى. وعلى اعتبار أنه المدافع عن مجموعتي فقد وصف خطوة الإجراءات للمساعدة في دمج الشخصيات الأخرى في شخصيتي الأصلية. لقد أصبنا أنا والدكتور باير بالدهشة العارمة.

وفي أغسطس حاولنا أنا والدكتور باير تطبيق طريقة هولدون بالدمج وذلك من خلال جولي، وهي أنثى عمرها 13 سنة ولدت شخصيتها عندما كان جدي يمارس الاعتداء علي.

وتحت التنويم المغناطيسي التقيت جولي في مكان تخيلته آمن ومن ثم دخلت هي إلى جسدي، وبمساعدة الدكتور باير بدأت أمتص أفكارها وذكرياتها وسماتها الشخصية. وبدت الطريقة في غاية السهولة غير أن النتيجة كانت مؤذية. وبعد أن دُمجنا أنا وجولي، بدأت مباشرة أستشعر كل الأصوات من حولي. وكنت أستطيع سماع أنفاس الدكتور باير وصوت قلمه وهو يدون ما أتحدث به، وحتى صوت مكيف الهواء. وعندما كان يتحدث كان يبدو وكأنه يصرخ علي. وشعرت أن عملية الاندماج أشبه بعملية الجراحة. وعشت الحيرة من كوني سأُقدم عليها ثانية أم لا.

ترى الأحداث كفيلم سينمائي

وفي البيت كان دماغي في حالة كما لو أنياً فيلماً سينمائياً، تمر لقطاته على نحو سريع، ومع انهمار الذكريات التي حدثت لي شعرت بكل جزئية ألم ترتبط بها ـ وبالرغم من ذلك فإن كل نوبة ألم كانت تستغرق ثواني، وكنت فقط أرغب في أن تتوقف هذه الذكريات.

وخلال الأسبوع التالي مررت من خلال كل الذكريات التي تمتلكها شخصية جولي وتدريجياً بدأت أمارس وظائفي ثانية. وحينها أدركت أن

امتلاكي لجولي كان شكل من أشكال الحماية اتجاه ما حدث لي عندما كنت طفلة ـ والآن أنا على وشك أن أتمكن من التعاطي مع ذكريات التدهور والتراجع النفسي. وفي المرحلة التالية تمكنا من دمج شخصية كلير، كما أن التجربة لم تكن بذات الصعوبة، وبمجرد الاندماج شعرت تحولاً في شخصيتي واستشعرت بأني استعدت أنوثتي وأصبحت أكثر حساسية.

ولدت من جديد

لقد كانت العملية طويلة وشاقة لكنها فاعلة وفي النهاية تم التعاطي مع هولدون بعد ذلك لاحظت التغير على نفسي. ومن الصعب تحديد كل شيء بوضوح لكن بدأ لدي إحساس مختلف، وكان هنالك غنى في كل الجوانب التي تحيط بي ـ وفي عام **2001** تطلقت من زوجي بعد علاقة مليئة بالمشاكل. وكان الحديث عن الماضي يرعبني ولا أتخيل نفسي أتحدث عنه، ولكن التجربة جعلتني أقوى، وقبل ثلاث سنوات توقفت عن تلقي العلاج على الرغم من أني مازلت التقي الدكتور باير كصديق، ولم أعد أبدد ساعات حياتي سدى.

وما خلصت إليه هو أن الطفل عندما يصبح ضحية ـ كما حدث معي ـ فإنه ينكفىء إلى الأماكن الآمنة التي يعرفها في داخل نفسه. وفي الحقيقة أنا لا أرغب في نسيان أجزائي الأخرى المختلفة والتي جعلتني من أكون، غير أني فقدت الكثير من حياتي والآن أشعر بأني قد ولدت من جديد.

امرأة بلا وجه

كانت الفرنسية إيزابيل دنوار، المرأة الأولى في العالم التي فقدت وجهها و«مجازاً» استعارت وجهاً بدلاً عنه. فقد أفاقت هذه الأم من نومها ذات صباح لتكتشف أنها فقدت وجهها أثناء نومها. وعندما تناقل العالم قصتها لم يُصدَقها البعض في أول الأمر لكن في النهاية استطاع فريق طبي صار الأشهر في العالم من أن يأتي لها بوجه آخر أعاد لها الحياة من جديد. وبالرغم من الرعب الذي عاشته إيزابيل دنوار بسبب محنتها الكبيرة إلا أنها اليوم لديها قصة أخرى تحدثنا عنها هي كيف يعيش الإنسان باقي حياته بأنف وفم وشفتين وخدين لإنسان آخر.

تقول إيزابيل دنوار: أنا الآن إنسانة مرة أخرى، أعود إلى أرض الأحياء الذين لديهم وجوه وابتسامة وتعابير تتيح لهم التواصل مع بعضهم البعض. لقد مررت بكابوس مزعج ومغامرة في آن واحد. وما زلت أشعر بصعوبة الحديث عن هذه التجربة. إنها تجربة مجنونة ولا يمكن تصورها لكني ما زلت على قيد الحياة رغم أن الذي حصل لي لم يحدث

لإنسان آخر قبلي. والآن لدي مستقبلي وعلاقاتي القوية ـ التي لم أمتلكها من قبل. كما استطعت أن أكون علاقة حتى مع الفريق الطبي الذي أصبح بالنسبة لي عائلتي الثانية.. والآن لدي الكثير من القوة لأن ما مررت به قد غير من شخصيتي بشكل كبير جداً.

كيف فقدت وجهها

لا أحب التفكير طويلاً بظروف الحادثة التي غيرت مجري حياتي رأساً على عقب.. ودعونا نقول إن كلبتي تانيا الهجينة التي تتميز بالهدوء والتي لم تعض أي شخص من قبل قامت بتمزيق وجهي وشوهته.

كان ذلك خلال الليل حيث كنت مخدرة تقريباً وتعبة لأنني أخذت كمية كبيرة من الحبوب المنومة، ومن الممكن أن الكلبة تانيا كانت تحاول إيقاظي من سباتي العميق. وفي كل الأحوال حينها لم أكن أشعر بشيء. وعندما استيقظت وكنت أشعر بغيبوبتي وترنحي أمسكت بالسيجارة ووضعتها على نحو ميكانيكي بين شفتي. كان أمراً أشبه بالمستحيل؛ السيجارة سقطت من بين شفتي، وشعرت أنه ليس هناك شيء يبقي السيجارة في مكانها. ومن دون أن أعي ما يجري حولي، نهضت وتحركت باتجاه المرآة الموجودة في الحمام. كان ما شاهدته شيئاً غير معقول على الإطلاق حيث لم يكن وجهي المقطع إلى أوصال سوى تجويف كبير. لقد اختفى الأنف والشفاه والحنك والجزء الأكبر من الخدين. حينها قلت لنفسي: هذا غير معقول وضرب من المستحيل. أنا لا أتذكر أي شيء.. لكنه قد يكون ليس بوجهي.

وتساءلت: هل استطاع الكلب أن يلعق الدم من الأرض؟ كنت في حيرة من أمري. اتصلت بأختي الكبرى التي تعيش مع والدتي وقلت

لها: إن عليك أن تأتي وتأخذي الكلبة «تانيا» لأنني أشعر بأني لا أطيقها. اعتقدت أنني كنت أتكلم على نحو طبيعي في حين أن أختي لم تفهم أي كلمة مما قلته إليها الأمر الذي أصابها بالذعر. وقبل أن تنطلق نحو منزلي اتصلت برجال الإنقاذ. وبعد مرور خمس دقائق كانت هي ووالدتي وبناتي الصغار قد وصلن إلى المنزل. وحتى ذلك الحين يبدو أن الدنيا قامت ولم تقعد. وتعالت الصرخات في كل مكان. وهنا أدركت بأنه ليس حلماً، إنها الحقيقة: لم يعد لي وجه، ولن أمتلك وجهاً.

وصل رجال إلى المنزل وحملوني لكي أجلس على الأريكة، وحاولوا إيقاف الدم الذي ما زال ينزف، فيما لا يزال خدر خفيف يلازمني. لم أتمكن من استعادة توازني نُقلت إلى المستشفى في فالنكنينس حيث كان كل شخص مذعوراً لهول ما يراه. وعلى ما أعتقد أنه لم يشاهد أي من الذين قابلتهم وجهاً على هذه الحالة في حياته. ومن ثم سرعان ما نقلت إلى مستشفى في أميان حيث رقدت هناك مدة ستة أشهر.

المعاناة والحلول

في ذلك المكان حقيقة كنت أعاني كثيراً وقد أرغمت خلال ذلك الوقت على البقاء مستيقظة تماماً بسبب حالتي الصحية والنفسية. كما كنت أتناول طعامي عبر أنبوب التغذية. وكان اللعاب يسيل أسفل رقبتي لعدم وجود جلد أو شفاه توقفه عن السيلان. ولم أكن أستطيع التنفس بواسطة أنفي لأنه ليس لدي أنف. وفي الحقيقة انزلقت نحو عالم آخر لم أتخيله ولن يتخيله أي شخص. لم أجرؤ على مغادرة غرفتي، ووجدت صعوبة في النظر إلى نفسي واستحوذت علي فكرة ما هو رد فعل الآخرين عندما يشاهدوني. لقد كان أمراً مروعاً ورهيباً.

وأمام المرآة لم أستطع أن أتوقف عن التفكير بأنه ليس وجهي. وذهبت إلى تفسيرات بعيدة منها أن حالتي أشبه بالخيال العلمي. وبعد فترة قليلة وضعت قناعاً على وجهي. وكنت أخرج فقط إلى الممر في حالة تأمينه من نظرات الأشخاص الفضوليين الذين يحدقون إلى وجهي الذي هو أساساً غير موجود.

في المستشفى أثاروا فكرة إجراء سلسلة من العمليات لإعادة المناطق التي اختفت بفعل النهش والعض ولكن لن تكون لدي أي شفاه. وسيبقى وجهي يرعبني لأنه لن تكون لديه أي تعابير. وكان ذلك الشيء الأكثر ترويعاً لي وهو أن أتخيل وجهي بهذه الحالة البشعة فلا أستطيع أن أخرج ثانية لأقابل الناس. ولن أكون لائقة لينظر لي أي إنسان.

ووجدت أنه من الصعب أن أتحدث وأن آكل إلى أن ظهرت فكرة زرع الوجه. وكان الجراح يتحدث عنها للمرة الأولى حيث قال لم نقم بذلك من قبل وستكونين أنت أول حالة. ولكن أعتقد بأننا جاهزون ونحن بحاجة إلى متبرع فقط، والمتبرع يجب أن يكون امرأة، وهذا معناه أن نحصل على امرأة سوف تمنحني وجهها، هكذا إذن وجه امرأة تموت ولن تحتاجه، مع العلم أننا نعرف جميعاً أن الوجه هو أكثر من يحمل هويتنا وهو الذي يحوي كل تعابيرنا.

وفي هذا الجانب صرت أفكر في حيثيات الحصول على متبرعة وتساءلت: ما الذي يمكن أن تقدمه العائلة إزاء مثل هذه المبادرة؟ وما الذي يمكن أن يفعله الآباء الذين صعقوا بخسارة مفزعة لعزيز عليهم ووجدوا أنفسهم فجأة قد أجبروا على أن يتخذوا مثل هذا القرار بسرعة؟.

لكن في حالتي كان الشيء الذي طمأنني أن أسرة المرأة المتبرعة تصرفت بقدر من المثالية في التعاطي مع هذه التجربة الفريدة.

القرار والتنفيذ

وقبل أن أتخذ القرار طلبوا مني أن أفكر بالأمر بهدوء غير أني قلت نعم مباشرة لأنه لم يكن لدي بديل. أعطوني أوراقاً أقرأها قبل أن أوقعها. وأخبروني بأن فترة العلاج ستكون طويلة ورهيبة وتنطوي على مخاطر جمة فضلاً عن إمكانية ظهور تعقيدات غير متوقعة خلالها. لكني كنت قد اتخذت قراري وبدون رجعة. وشعرت أنه لا يمكن لأي شيء أو أي شخص أن يغير قراري. فقناعتي ما معنى الحياة بدون وجه؟

وتطلب الإجراء موافقة عدد من المسؤولين والأطباء. وقد استغرق ذلك وقتاً. وبعد أن استكملت الإجراءات مضينا قدماً بانتظار المتبرع.. وكان يجب أن تكون لديها نفس نسيج بشرتي ونفس فصيلة الدم ونفس نوع الخلايا. وقد سمح لي في هذه الفترة بمغادرة المستشفى على أساس أن أكون عندهم في زمن لا يتجاوز الساعة في حالة طلبي للحضور. وأن أتوقع الاتصال ليلاً أو نهاراً.

وفي كل مرة يرن جرس الموبايل يتوقف قلبي عن الخفقان. ومع أن حقيبتي كانت جاهزة إلا أنه عليّ إجراء بعض الترتيبات الخاصة بنفسي وكلبي الجديد وابنتي الأصغر.

واستغرق الانتظار شهرين. وفي السابع والعشرين من نوفمبر **2005** الساعة السادسة صباحاً، شاهدت على شاشة جهاز الموبايل رقم مستشفى أميان. أخبرت أمي إنه المستشفى. نظرنا إلى بعضنا من دون أن نقول شيئاً. أخبرتني الممرضة أن المتبرعة جاهزة وعليّ أن أحضر بأسرع ما يمكن. واندفعنا مسرعين جمعت أشيائي واتصلت بسيارة الأجرة وخلال تلك الفترة تداخلت الكثير من العواطف المتضاربة منها القلق والفرح والإثارة والرهبة وغيرها.

وطلب الجراح أن يراني مرة ثانية وأن يحصل على موافقتي الأخيرة قبل الذهاب إلى رؤية المتبرعة. وبمجرد أن غادر المكان اصطحبوني إلى غرفة العمليات لتهيئتي. وواصلت التفكير بالجراح وهو ينحني على المتبرعة ليفحصها. هل أن الوجه مطابق للصورة التي تسلمها عبر الكمبيوتر؟ وهل تتلاءم مع حالتي؟ كان الجميع يعيشون الانتظار والترقب. وعندما أعطى الضوء الأخضر للبدء، أخذ كل شيء يسير حسب المخطط له.

تم تخديري وقاموا بثقب القصبة الهوائية وتهيئتي تماماً. وشعرت بأني أمام مغامرة ستنتهي بأنه عندما أصحو سأجد وجهي. واستغرقت العملية (15) ساعة، وبعد الانتهاء من كل شيء هادنت نفسي وقلت إن علي التمهل قبل النظر للمرآة لكن موقفي تغير عندما علمت بأنهم يعتزمون نقلي بسرعة إلى مستشفى ليون فقررت أن أرى وجهي الجديد في المستشفى وبين أعضاء الفريق الطبي الذي عاش جحيم الانتظار معي وتابع أدق التفاصيل.

النجاح وضريبته

لذا جاءت اللحظة الحاسمة، فقد حمل الطبيب الجراح المرآة ثم توقف عند سريري، وسلمني إياها فلاحظت أن التجويف الذي تكون بفعل هجوم كلبي تانيا قد امتلأ تماماً. كان هناك شفتان وأنف وخدان. يا لها من مفاجأة؟ إن العملية قد نجحت حيث تجمهر الأطباء والمرضات من حولي فانفجر المكان بالصراخ والصخب. وبالطبع في حينها فكرت كثيراً بالمتبرعة التي كانت قد توفيت باستثناء قطعة وجهها التي أصبحت على جسدي والتي ستبقى رابطة بيني وبينها إلى الأبد. كانت بشكل دائم معي وبتفكيري. ومن الصعب عليّ أن أوضح

حقيقة مشاعري تجاهها وأتمنى على عائلتها أن تعرف كم أنا ممتنة لها. لقد منحتني فرصة حياة ثانية. وأتساءل عما إذا يرغبون بسماع شيء عني في بعض الأحيان. وأرغب في أن يكونوا فخورين بمبادرتهم الإنسانية وعليهم أن يعرفوا بأني أشكرهم كل الشكر.

ومع أن هوية العائلة كان يجب أن تظل سراً إلا أنها سُربت من قبل الإعلام والصحافة. وفي الواقع أنا شخصياً كانت لدي تساؤلات عديدة بشأن المتبرعة حول عمرها وشخصيتها ومظهرها غير أن الأخلاق الطبية تقتضي أن تبقى سراً، لذا لم أعرف عنها شيئاً إلا بعد أن ظهرت قصص عنها في الشبكة العنكبوتية وبعد أن نشرت صورها في بريطانيا. ويشعر الناس بالمتعة حينما يقارنون وجهها بوجهي. وإني أرى أنه لأمر غير مقبول إطلاقاً. وبالنسبة لهؤلاء الذين يبكون فقدانها، فانه لأمر محزن حقاً وأشعر بالأسى من أجلهم.

وفي الحقيقة إن علاقتي بالصحافة كانت الإخفاقة الوحيدة في مغامرتي لتعويض وجهي. وبمجرد أن نشر اسم عائلتي في الإعلام تعرضنا لمضايقات بطريقة لا تصدق. لقد كان الصحفيون يتعقبون أمي وأختي من أجل التقاط صورة وإجراء مقابلة. كما أنهم تركوا زهوراً مع أرقام تلفونات وقدموا ظروفاً بها مبالغ نقدية. لقد نام الصحفيون في سياراتهم أمام شقة والدتي وأجبروها على أن تترك المنزل لمدة أسبوع بسبب إزعاجهم.

وكان من المفترض أن أقضي ثمانية أسابيع في مستشفى ليون. لأن الفترة التي تلت العملية هي الأخطر لوجود خوف كبير من رفض الوجه المزروع. وقد وقعت المشكلة الأولى قبل أعياد الميلاد بقليل عندما أصبح النسيج الحي الذي لحم جراحياً أحمر اللون مثل قطعة الجلد من المتبرعة ـ والتي طعمت أسفل الصدر لأنها تسمح باكتشاف ما قد يحدث للعملية من تداعيات ـ غير أن استجابة الأطباء كانت فورية. أعطوني حقناً

وزادوا من جرعات علاج مقاومة الرفض. وبعد فترة جاءت مرحلة الرفض الثانية وذلك عندما كنت في فترة النقاهة في البيت. لقد علمني الأطباء كيف أتأكد من فحص وجهي حيث أقوم كل يوم باستخدام المرآة وتحت نفس الضوء. وذات صباح شاهدت أن هناك مكانين تحولاً إلى اللون الأحمر. وانطلقت للمستشفى. وبادروا إلى اتخاذ التدابير اللازمة وإيقاف ذلك بسرعة.

وبعد أسبوع أصبحت قادرة على الشرب والأكل بشكل طبيعي تقريباً ولكن كان يتوجب علي أن أكون حذرة لأن شفتي ما زالتا لا تتحسسان أي شيء. وفي بعض الأحيان تنساب السوائل إلى الأسفل أو أتسبب في حرق نفسي. وعندما أصحو أول ما أبادر القيام به هو أن أتلمس وجهي لأتأكد من أنه ما زال موجوداً.

العودة للحياة الطبيعية

وعلى نحو تدريجي أخذت أستعيد مشاعري الاعتيادية. أولاً بدأت أشعر بحكة خفيفة للنسيج. أو أشبه بوجود نمل على خدّي وعلى حنكي. وحينما أصفه أقول إنه تقريباً مثل الكهرباء. كان شيئاً غير معقول أن تعود الحياة حيث أخذت الأعصاب تعمل بما فيها المنطقة التي تقع نهاية الأنف. وبعد ستة أشهر استعدت الكثير من جمالية الوجه. لقد تسبب العلاج في إتلاف نظام المناعة عندي حيث أصبح بإمكاني التقاط أي فايروس قريب. وصرت أتجنب أي تماس مع أي شخص مريض لأنني يجب ألا أصاب بالزكام أو أي شيء من هذا القبيل. وخفضت جرعات الحبوب، وبدا عليّ العيش مع احتمالية الرفض. أنه سيف دموكلس المرعب. ولكن الفرق الطبية كانت قريبة جداً مني بحيث لم أشعر بأنني وحدي.

عموماً فإن هذا الوجه ليس وجهي. ولن يكون كذلك. وكثيراً ما كنت أنظر إلى نفسي بالمرآة في البداية، بل كنت أقوم به طوال الوقت. كما كنت أنظر إلى معالم وجهي القديم ولم أستطع النظر إلى صوري القديمة لأنني أشعر بألم فظيع. وفي الوقت الحالي أخذت التعود عليه لكن جزءاً مني ومن هويتي قد ذهب إلى الأبد وما زلت اختزن في نفسي ذكرى ما كنت عليه.

وبالنسبة للتبرع بالأعضاء، فعلى الجميع أن يفكروا بمسألة التبرع بالأعضاء وعندما لم تكن لك مواجهة مع الأمر فستقول لنفسك لتنتظر لأنني لن أموت غداً. لكنك لا تعرف ما الذي قد يحدث بعد قليل. فإذا لم تتكلم عن ذلك مسبقاً أمام عائلتك فإنهم سيعانون من الصدمة ولا يستطيعون إعطاء الموافقة على التبرع بأعضائك. ومن المؤسف ألا يحدث ذلك، إذ يمكن لكل شخص أن يساعد في إنقاذ (5) أشخاص ويتيح لهم العيش من بعده.

على أية حال فإنني أرغب في العيش وأن أعود ثانية لحياتي الطبيعية وأجد عملاً فلدي شعور كبير بالمسؤولية تجاه نفسي وتجاه عائلتي وتجاه الفرق الطبية لمستشفى أمين ومستشفى ليون في فرنسا الذين منحوني كل شيء. وكذلك تجاه المتبرعة نفسها وعائلتها أيضاً. فلا يمر يوم من حياتي من دون أن أفكر بها.

فتاة الدينكا

عارضة الأزياء السودانية إليك ويك: التي أصبحت أشهر من نار على علم هربت من وطنها الأم السودان عندما كانت تمزقه الحرب وعمرها 9 سنوات. ولم تحمل معها في رحلة الهروب شيئاً سوى ملابسها التي ارتدتها لكنها في النهاية تسلقت سلم المجد وحازت العديد من الألقاب منها الجوهرة السوداء و النخلة و الجمل لكن ربما أن لقب فتاة الدينكا ينطبق عليها كثيراً لأنها تنحدر من تلك القبيلة الكبيرة والعتيدة في جنوب السودان. إن قصة حياتها الحقيقية التي كتبتها أصبحت من القصص التي تدلل على أن الإنسان قد يواجه كماً هائلاً من المصاعب في مسيرة حياته لكنه في النهاية قد ينتصر لاسيما إذا كان يؤمن بأنه يستطيع أن ينتصر...

استيقظت في منتصف الليل على صوت إطلاق نار، فقفزت من فراشي لأرتدي ملابسي على عجل معتقدة أن الميليشيات المسلحة منتشرة في

الخارج، بدأ ينتابني شعور شديد بالرعب. بعدها لاحظت وهجاً من الضوء يأتي من تحت باب غرفة الفندق، حينها أدركت أين أنا؛ لم أكن في السودان وإنما في غرفة في فندق في مدينة ميلان.

بعد لحظات سمعت صوت الفرقعة ثانية،غير أنه لم يكن سوى صوت الشاحنة التي تجمع النفايات من مطعم البيتزا الذي يقع تحت نافذة غرفتي. إذن أنا لست في السودان، وليس هناك أي تهديد. حقاً إن هذا المشهد يجسد حقيقة كوني لا أستطيع نسيان الماضي الذي هربت منه في طفولتي، لكني وجدت أيضاً بعضاً لا يصدقون ما بلغته. فأنا أسافر الآن بجواز سفر بريطاني لأن بريطانيا استقبلتني كطفلة لاجئة وحصلت على البطاقة الخضراء التي تتيح لي العيش والعمل في أمريكا.. وأقوم بدفع الضرائب ولدي منزل في نيويورك وأدير أعمالاً تجارية كثيرة.

نشأة البقرة الرقطاء

وعن حياتي الماضية كان تسلسلي السابع بين إخوتي التسعة وولدت في مدينة صغيرة اسمها واو.. واليك معناه البقرة الرقطاء رمزاً للحظ السعيد عند الدينكا، أخذت قوامي الطويل الذي يبلغ خمس أقدام وإحدى عشرة بوصة من والدي في حين منحتني والدتي تلك الابتسامة الجميلة، أما بشرتي الزيتية فأخذتها من الاثنين. يعيش أهلي وشعبي في جنوب السودان منذ آلاف السنين. والشيء الرئيسي الذي يفهم عن بلدي أن هناك فواصل بين العرب المسلمين الذين يعيشون في الشمال والمسيحيين والروحانيين.

لقد أذعن البريطانيون الذين حكموا حتى الخمسينيات الشمال والجنوب بشكل منفصل لضغط القادة الإسلاميين لتوحيد البلد فقط قبل الاستقلال. وشرعت الحكومة الشمالية بفرض الثقافة الإسلامية. واستمر

ذلك حتى عام 1972 عندما وقع الطرفان على اتفاقية تمنح الاستقلال للجنوب. وبعد هذا التاريخ بخمس سنوات رأيت النور لأول مرة.

تنقسم الدينكا إلى عشائر وبدورها تنقسم إلى مجاميع صغيرة تسيطر كل منها على أرض كافية لتأمن الماء والمرعى لحيواناتها الأليفة. وتعد هذه الحيوانات عنصراً أساسياً للدينكا. وبالرغم من أن والدي أسكننا في مدينة صغيرة إلا أننا أبقينا على قطيع يتكون من 15 دابة. أتذكر أن والدتي كانت تقول: لا تنسوا التقاط الروث قبل الذهاب للمدرسة. وكنا نترك الروث ليجف وفي الأمسيات نحرقه لأن دخانه يبعد عنا البعوض والذباب.

وفي بعض الأحيان نستخدم رماد الروث ـ الذي يصبح نقياً بسبب الحرق ـ كمعجون لتنظيف الأسنان، ولعدم وجود الفرشاة فنستخدمه بمساعدة أعواد الخشب. وبعد 16 سنة وعندما ذهبت لطبيب الأسنان لأول مرة أخبرني بأن لدي أسناناً سليمة على نحو غير معقول لذلك أنصح باستخدام الأعواد ورماد الروث من أجل فم وأسنان سليمة. ويستفيد صبية القرية الذين يرعون الماشية من بولها عندما يضعون رؤوسهم تحت البقرة أثناء التبول بحيث يمر ذلك السائل على شعره وجسمه لأنه يقتل القمل ويبعد البعوض عن مهاجمته. ويبدو أنها من الطرق المتاحة أمامنا بسبب عدم توفر العلاجات.

شيء واحد لم أشف منه منذ الطفولة إنه داء الصدفية إذ تتحول بشرتي إلى اللون الترابي والأبيض وآخذ بالحك إلى أن أنزف دماً، أشعر بالخجل وأخيراً فقط تخلصت منه في بريطانيا غير أن معاناة هذه السنين علمتني ألا أهتم كثيراً بالجمال.. فقد كنت قبيحة طوال طفولتي.

لقد تربيت في عائلة تعتبر من الطبقة الوسطى حيث كنا نعيش في بيت مبني من الأسمنت يتكون من غرفتين وفيه باحة أعدت للأبقار.

كانت عائلتنا تتكون حينها من ثمانية أفراد: والدي ووالدتي وستة أطفال لأن إخوتي الكبار كانوا قد غادروا منزل العائلة.

معظم الناس في أوروبا أو أمريكا يعتبروننا فقراء لعدم وجود الكهرباء أو الماء أو التواليت لكن لدينا كفايتنا من حيث إن البيت موجود وكذلك الطعام والملابس البسيطة. وهناك كثير من الناس أكثر فقراً منا لاسيما هؤلاء الذين يعملون بالحقول ويعيشون ببيوت بلا سقوف. كان والدي يعمل في مجلس التعليم المحلي،ويخرج للعمل يرتدي بدلة وربطة عنق ويحمل حقيبة جلدية سوداء صغيرة وكان طويلاً ووسيماً ورشيقاً. في الأمسيات كان يستمع لإذاعة إلبي بي سي من خلال راديو صغير يعمل بالبطارية. وكان يتابعني ويسألني عما تعلمته بالمدرسة؟ ومن بين الأسئلة التي أتذكرها جيداً: هل تعلمت كيف تحكمين العالم؟. ويأتيه جوابي بكلا، بعدها يأمرني بإنجاز واجباتي المدرسية.

الحرب الأهلية

ترك تطوران أثرهما على طفولتي الأول حادثة سقوط والدي من دراجته الهوائية وكسر وركه حيث ركب له الأطباء في الخرطوم براغي حديدية، والحدث الثاني كان في عام 1983 بعد فترة من عودته إلى منزلنا اندلعت الحرب الأهلية. وحينها اتخذت الحكومة قراراً ألغت بموجبه الحكم الذاتي وفرضت أحكام الشريعة وتشكل جيش التحرير الشعبي ليبدأ القتال. وقد أصبحت «واو» منطقة عسكرية تعج بالمتمردين القادمين من الضواحي، والجنود المنتشرين في المدينة وكذلك الميليشيات الخارجة على القانون التي تعيث بالأرض فساداً. كانت الميليشيات المسلحة عبارة عن مجاميع من العصابات ليس لها ولاء سياسي لأي جهة على الإطلاق وكل ما تريده أن تسرق وتنهب وتغتصب وتدمر. ولا

يكترثون لأي شيء. والكثير منهم ليس سوى مراهقين يستطيعون حمل البنادق.

لقد كان أمراً مروعاً أن تسمع أصوات العجلات العسكرية تهدر عبر شوارع «واو» أو أن ترى رجالاً بالزي الأخضر يرابطون قبالة جدران بيت جارك. لقد تشظت حياتنا الاجتماعية التي عشناها مع جيراننا الذين كانوا من قبائل وأديان متعددة. وأصبح كل شخص موضع شك من قبل الآخر. سمعنا من بعض الجيران يقولون إنهم الدينكا من تسببوا بكل هذه المشاكل. ولو لم تؤل الأمور للدينكا ـ الذين يشكلون الكثير في الجيش الشعبي لتحرير السودان ـ لكان هناك سلام.

شاهدت أول جثث ضحايا هذه الحرب عندما ذهبت مع أختي «ادوا» لجلب الماء حيث شممت رائحة كريهة وبعدها وجدنا جثة امرأة ممدة في العشب ومن ثم شاهدنا أخرى، فهربنا إلى المنزل. بدأ تراشق النيران بين الجنود الحكوميين والميليشيات في المدينة بأكملها. وفي الليل استخدمت الصواريخ والأسلحة الأوتوماتيكية في الاشتباكات. كان والدي قد خطط للعودة للخرطوم ليرفع البراغي الحديدية التي تثبت وركه لكن في هذا الأثناء أصبح الخروج من «واو» شبه مستحيل. تدهورت حالة والدي الصحية.. بحيث أصبح لا يستطيع المشي. كما أنه سقط وكسرت ذراعه اليسرى.

وذات ليلة اندلع قتال خارج منزلنا عندما كان والدي عائداً من المرحاض الذي في الفناء حيث ارتمى على الأرض لمدة عشرين دقيقة. في اليوم التالي اندفعت جماعة من الميليشيا عند البوابة المعدنية، وأطفأت والدتي الفانوس وتجمعنا مرعوبين وعندما دخلوا الفناء تذكرت والدتي بأسف بأنها تركت الباب مفتوحاً.. زحفت نحو الباب ووضعت الزلاجة مما تتسبب بحدوث صوت قرقعة. عندها انفجرت الأسلحة واخترقت

الإطلاقات الجدران والنوافذ فما كان منا سوى الاختباء تحت الأسرّة لكن والدي كان يبكي من شدة الألم. غادرت الميليشيا المكان لكننا ظللنا متسمرين على الأرض طوال الليل ونستمع إلى دوي الإطلاقات والإنفجارات.

الرحيل القسري ومرض والدي

بعده قرر والداي بأنه حان وقت الرحيل. كان علينا الاتجاه إلى قرية والدي التي تقع جنوب «واو» وكانت بعيدة عن الشارع الرئيسي وهذا يعني أنه لا وسيلة أمامنا سوى السير. ولكن كيف سيكون حال والدي الذي لا يستطيع الحركة علماً أنه في الأربعين من العمر. عندما انطلقنا التحقنا بأناس آخرين كانوا يغادرون المدينة أيضاً، ومن بينهم نساء مسلمات بحجاب أخضر أو أزرق ورجال نوبيون ومسيحيون، ولكن الأكثر كانوا من الدينكا والذين يسيرون نحو الجنوب وباتجاه الحدود مع أوغندا وزائير في أعماق أراضي الدينكا. لم تحمل عائلتنا شيئاً سوى ملابسنا التي ارتديناها. كنت في وقتها في التاسعة من العمر، ولم أذهب إلى الريف من قبل لكنني سمعت أشياء غريبة عنه. كان حين يأتي ابن عمي في زيارة إلينا يرتدي ملابس بدائية ويطلب منا أن نخرج القمل من شعره. وبعد سنوات عديدة عندما ذهبت إلى لندن اكتشفت أنه من الخطأ الحكم على الناس بناء على خلفياتهم الثقافية واكتشفت أنني أعيش وهم الانتماء إلى عائلة متعلمة ومتطورة.. وكان عليّ ألا أسخر من أي قروي لأني وجدت نفسي هناك فتاة بدائية وفي نظر الناس ليس سوى قروية أشبه ابنة عمي أو ابن عمي.. لقد كنت إفريقية ببشرة أكثر سواداً من الليل حتى بالنسبة للجيل الثالث من الأفارقة الذين يعيشون في لندن وممن بشرتهم فاتحة ويعرفون الإتيكيت.

في الليلة الأولى من مسيرنا طهت والدتي حساء من فواكه ونباتات برية. ووضعنا حصيرنا على الأرض الوسخة بالقرب من كوخ مهمل وضربنا عموداً لكي نفزع الحيوانات لتعرف بأن بني البشر موجودون وعليها أن تغادر المكان أو تقبع في جحورها. وتساءلت: لكن ماذا عن الأفاعي؟ فأجاب والدي، الأفاعي لا تأكل «إليك» الصغيرة. وماذا عن الأسود؟ أجاب أنها تبحث عن فتاة سمينة وليس نحيلة مثلك.

وفي اليوم التالي مررنا بغابة كثيفة فيها الكثير من البعوض وشعرت بجوع شديد لأنه لم يدخل بطني شيء سوى بعض الأوراق وجذور النباتات لم تكن مقنعة لأني مشيت مسافة ثماني ساعات تقريباً. وفي بعض الأحيان كنت أفرك بطني بيدي لأخفف ألم الجوع. وحتى بعد مرور عقدين من الزمان إلا أني ما زلت أتذكر آلام رحلتي وأرغب بالبكاء. وعلى نحو متفائل أكثر من أي وقت مضى وجدت في والدتي ذلك الجانب المشرق، فكانت تغني بعض الأغاني وتلقي بعض النكات وتروي لنا قصصاً عن الماضي. وقد سرنا على هذا الحال لمدة أسبوعين نضحك طوال النهار وننام تحت المطر ليلاً وبطوننا تقرقر من شدة الجوع إلى أن شاهدنا ذات يوم قطيعاً يرعى وعجوزاً يسير باتجاهنا حينها قال والدي: لقد وصلنا.

استطعت أن أشاهد أكواخاً مصنوعة من الطين والقش كانت بيوتنا تبدو قصوراً مقارنة بها. شعرت بالحزن والرعب. وفجأة التف حولنا 20 طفلاً يرددون مرحباً، مرحباً ويسألون: من أين أنتم؟ كنت أتوقع أمراً سعيداً لكني شعرت بالحزن ثم أخذوا يرددون أطفال المدينة، أطفال المدينة سنأكلكم أحياء. ومع مرور الأسابيع في القرية ساءت صحة والدي. وذات صباح تدهورت صحته كثيراً، وكانت نظرات عينيه غريبة وبدا

كرجل آخر مرعوباً وفاقداً للأمل وأصبح لا يستطيع الجلوس أو الانحناء ومشيته بطيئة فضلاً عما يعانيه من شدة الألم.

كان هناك عجوز يعيش في القرية يطلق عليه الأطفال لقب الشبح العملاق قيل إنه معالج لبعض الأمراض. ذات صباح وضع أنفه عند ورك والدي بحيث تسببت رائحة القيح بإرجاعه رأسه للخلف بسرعة ومن ثم أخبر والدتي بأنه يجب أن يعرض على طبيب.

واتضح أنه من دون عناية طبية مركزة فإن والدي سيموت. وبالنسبة لنا كنا لا نستطيع العودة بسبب القتال. وظلت الأنباء القادمة من هناك سيئة طوال أشهر والأمطار بلغت ذروتها وتكاثر البعوض الذي بدا جائعاً مثلنا في القرية بشكل مخيف. وفي هذه الأثناء أخبر تاجر أمي أن المعارك حول «واو» انتهت إلى حد ما. وفي الصباح الذي استيقظت فيه لأجد كدمات وبقعاً دموية على جسدي. قررنا الرحيل ولم يكترث أحد من القرية لمغادرتنا. وبعد أقل من ساعة من المسير لم يستطع والدي المشي فساعده إخوتي، حينها فاجأتني نوبة مرض حيث شعرت بصداع شديد وبإبر تنغرس في عضلاتي.

صرخت: «بابا»، وهو ما كنت أناديه به في صغري، «أشعر بالتعب». أجاب بأنني أصبت بالملاريا.. وهي من الأمراض المستوطنة في جنوب السودان والتي تقتل الآلاف. كان لدى والدتي جرعة لمكافحتها عندما تأخذ بالاستفحال، وفعلاً شعرت بأنني سأموت لكن أختي أصيبت أيضاً بالملاريا، لذلك استخدمت الجرعة لإنقاذ حياة أختي التي كانت معاناتها أكبر من معاناتي. واستمرت رحلتنا حوالي أربعة أسابيع إلى أن وصلنا في النهاية إلى نهر جور بالقرب من «واو». وركضنا أنا وشقيقتي في داخل العشب الذي كان مرتفعاً إلى أن فوجئنا بثلاثة رجال بملابس ممزقة ويحملون الكلاشنكوف. كان القائد يرتدي صندلاً ونظارات شمسية.

قال من أنت أيتها الطفلة؟ لم أجب كنت فزعة خمنت أنهم متمردون، ولكن حتى المتمردين يقتلون الدينكا إذا كانوا بحاجة لشيء ما أو ينشدون غرضاً معيناً. وأعرف أن الجنود يغتصبون الفتيات وسمعت أنهم يسرقون الأطفال.. اعتقدت أنهم سينفرون مني بسبب داء الصدفية لكنهم بدأوا بالتحرك نحوي وشعرت بأني قد تبولت على نفسي مع العلم أني لم أشرب ماء في ذلك اليوم. ومن بين العشب ظهرت والدتي. نظروا إليها وكأنها شبح خرج لهم من حيث لا يتوقعون. ومن ثم تحدثت إليهم: هل أنت آنوك دينج؟ أنا أعرف والدتك. بدا الخجل على القائد، ثم أردفت إلهي لو أمك تعرف.. كيف هي؟ والدتي بخير أنها في الكونغو. هل هي بأمان؟ أجاب أعتقد ذلك. وهل أنت قادم لسرقتنا؟. أجاب: لا أعتقد ذلك.

لكن لم ينته الأمر إلى أن أعطيناهم بضاعتنا وملحنا وقليلاً من الصابون وقدر الطبخ وطعامنا على شكل هدية وليس لأنهم طلبوها. شعرت بالأسى لأجلهم فقد حملوا والدي وأختي وعبروا بهما النهر. كان بإمكانهم قتلنا وذلك ما حدث للكثير من الناس ممن التقوا الجنود أو الميليشيات أو المتمردين غير أن هؤلاء عاملونا كبشر.

الفراق

عندما وصلنا كانت «واو» مخيفة. حرقت البيوت ودمُرتْ نقطة الشرطة والطرق وبوابة دارنا حُطِمَتْ ووجدنا عائلة تعيش في منزلنا. وغادروا بعد أن تحدث والدي إليهم والذي كان بأمس الحاجة للذهاب للخرطوم لعدم وجود من يعالجه في «واو». كانت والدتي تريد مغادرة عائلتنا جميعاً لكن لا توجد قطارات أو سيارات والوسيلة الوحيدة هي الطائرات العسكرية التي من نوع C ـ51 ومخصصة لنقل الإمدادات

العسكرية. انتظرنا في المطار الصغير على أمل أن نهرب جميعاً فيما كان هناك المئات غيرنا يحاولون الشيء نفسه. كان الجنود يرغبون برؤيتنا نتوسلهم.

لقد توسلتهم والدتي من أجل أن يأخذوا والدي في إحدى الرحلات مبينة أن وضع وركه الصحي لا يتحمل التأخير كما كشفنا عن ساق أختي المتسممة وأخيراً قبل الحرس أن يرحلوا والدي وأختي وأن نبقى نحن. عدنا للبيت ودخلنا في نوبة بكاء وهي من المرات القلائل التي أشاهد فيها والدتي تبكي فلم يبق لنا شيء، لقد رحل والدي وليس معنا نقود وليس لدينا فكرة عن مستقبلنا.

رجعنا للمطار مرة إثر أخرى ولكن في كل مرة يصدوننا.. وفي إحدى المرات عندما كنا سائرين باتجاه المطار أخبرت والدتي بأني سأغادر اليوم حتماً وبأي طريقة وحتى لو تفرقنا. نظرت والدتي كما لو أنها تنظر إلى إنسانة مجنونة لكن شيئاً ما أخبرها بأن تثق بي. في المطار كان ذات المشهد القديم. الجنود الحقراء ومئات الناس الراغبين في الرحيل. وصف طويل من الناس الذين سُمِحَ لهم بالسفر لأسباب مختلفة كالرشاوى والعلاقات. شاهدت أحد الجيران من بينهم لم أعرفه جيداً. ومن دون أن أقول كلمة تركت والدتي وسرت نحوه وأخبرت الحرس بأنه والدي وبدوره أشار بالإيجاب. كانت والدتي تنظر لي والألم واضح في عينيها. وعندما بدأ الخط يتحرك قالت له بلغة الدينكا خذها لأسرتي في الخرطوم وأعطته عنوان خالتي. رد الرجل بالإيجاب، ولكن من يعرف إلى أين سيأخذني؟ ربما سيبيعني؟ أو يتخذني زوجة له؟ وقلت في داخلي لكن ماذا لو لم أر أمي مرة أخرى؟ فنظرت إليها بتركيز وابتسمت، ثم أشحت بوجهي لأن أحد الجنود ظهر فجأة أمامي. تساءل: من أنت؟ وما الذي

تفعلينه هنا؟ تصرفت بانفعال. وقلت له هذا والدي مشيرة إلى ذلك الرجل الذي بقي بارداً ولوح برأسه بالإيجاب ثم قال تعالي يا فتاة وأبقي معي.

وعندما سرنا باتجاه الطائرة أدرت وجهي لأرى والدتي. امتلأت عيناها بالحزن والدموع. أردت البكاء أيضاً لكني لم أفعل، صعدنا الدرج الحديدي الذي قادنا إلى جناح الأمتعة والحقائب وجلست إلى جوار والدي. وبمجرد أن أقلعت الطائرة من المدرج أطفأ الطيار الأضواء حتى لا تصيبنا صواريخ المتمردين وحلقنا في ظلام تام لمدة ثلاث ساعات. كان الجميع يغطون بالصمت وشعرت كما لو أني كنت في حفرة قبر. كنت وحيدة في هذا العالم، هاربة من الحرب، لا أحمل شيئاً سوى ملابسي التي أرتديها لكنها كانت بداية رحلتي إلى المرأة التي أصبحتها اليوم.

السواد شبهة..!

ذات مرة حين هبطت بي الطائرة في مطار جون كينيدي بعد عدد من عروض الأزياء في أوروبا، نظر لي ضابط الجوازات باهتمام بالغ ثم تمعن بجوازي بدقة، وبطريقة لم تحدث معي من قبل. بعدها احتجزوني لبعض الوقت حيث أدركت بأن نجاحي كامرأة سوداء طويلة القامة قد يشكل مصدراً لرد فعل عدائي وشبهة لدى بعض الناس. أرسلني الضابط إلى غرفة صغيرة مخصصة للإرهابيين المشتبهين أو المنتهكين للحدود وغيرهم. كانت الغرفة تشبه السجن حيث لا تستطيع استخدام موبايلك لطلب المساعدة ولا يخبرونك لماذا أنت محتجز. التقطوا لي صورة وتأكدوا من كارتي الأخضر وأخذوا بصمات الأصابع وعاملوني بخشونة وتصرفوا ببرودة من لديه شكوك في أمري. وفي مرة أخرى وعند مغادرتي لفرانكفورت ـ بعد انتهائي من بعض أعمالي ـ وكنت حينها مرتدية لملابس أنيقة وأحمل حقيبة صممتها بنفسي ونقشت عليها اسمي،

وبالرغم من أنني أحمل أوراقي كاملة إلا أنهم مع ذلك احتجزوني لوقت طويل. فهل حدث ذلك لأني امرأة سوداء؟ ربما لا أستطيع أن أثبت ذلك لكن تجربتي تخبرني بأن بشرتي تثير الشبهة في أماكن ما. وبعد عدة أسابيع احتجزني الضابط نفسه. وفي هذه المرة سألني لِمَ كنت في إفريقيا؟ ولماذا ذهبت إلى مصر؟ ولماذا ولِمَ وأسئلة كثيرة. أجبته بأنني عارضة أزياء وأسافر من أجل العمل، نظر لي ولم يصدق كلامي. وتساءلت عما إذا سندي كرادفورد تواجه مثل هذه المشاكل. وبعد مرور ساعة أخرى ذهبت إليه وأخبرته بأنني أعرف حقوقي.

قال مبتسماً: حقوقك!؟ وبعد ساعتين ونصف الساعة ختم جواز سفري وأعطاني إياه. ثم قال لي الضابط الذي إلى جواره: اعتقدت أنك ناعومي كامبل. وعند انتظاري لحقائبي اقتربت مني امرأة وقالت: إنك تشبهين تلك الموديل التي من إفريقيا قلت لها: حقاً؟ فأجابت نعم. حينها شعرت بالإندهاش. أخذت السيارة ووضعت خلفي كل ما حدث مثلما يفعل الدينكا.

نادي الناجيات من الموت

ثلاث نساء بريطانيات حالفهن الحظ واستطعن النجاة من الموت بأعجوبة، لم يتخلين عن وظائفهن، بل مازلن يحببن وظائفهن ويمارسنها ويعشن حياتهن الطبيعية. لكل واحدة منهن قصة مختلفة عن الأخرى، وكل امرأة لم تصدق من أنها مازالت تنعم بنعمة الحياة بعد أن كانت أقرب إلى الموت من أي شيء آخر. ورغم قسوة التجربة لكن ذلك لم يمنعهن من العودة والانطلاق مرة أخرى في الحياة وممارسة نفس المهنة التي كانت سبباً رئيسياً في الاقتراب من الموت.

أما كيف أصبحن ضمن نادي الناجيات من الموت فترويه السيدات الثلاث، فالأولى تدعى جوان دو نوبريجا وهي متطوعة في منظمة خيرية ترعى طيور البجع كادت إحدى البجعات أن تتسبب في وفاتها. والثانية آبي كولينز وهي مؤدية أدوار ومنسقة كاد اشتراكها في إحدى الخدع التلفزيونية أن يودي بحياتها، وثالثة أعضاء نادي الناجيات تدعى كلير سكوت وهي بطلة العالم في القفز بالمظلات لم ترعوِ من مهنتها الخطرة

التي في لحظة ما اقتربت بسببها أن تلفظ أنفاسها لكنها عادت من جديد وحصدت لقب بطلة العالم لمدة خمس سنوات.

بقيت تحت سطح الماء لمدة عشر دقائق

جوان دو نوبريجا تبلغ من العمر (51 عاماً) تعيش في ريدينج. وهي فنانة تعمل في مجال التصوير الفوتغرافي ومتطوعة في منظمة خيرية تعنى وتهتم بطيور البجع لاسيما المرضى والجرحى منها.

تقول جوان دو نوبريجا: كانت الساعة حوالي السابعة مساء عندما تلقيت اتصالاً يفيد بأن هناك بجعة مصابة عثر عليها عند قناة أيفون وكينيت، لذلك جمعت أشيائي وتوجهت مباشرة إلى هناك. وعادة ما كنت أُقَيم بعناية عملية الإنقاذ ولكن في هذا اليوم لسبب ما لم أقم بذلك. رأيت الأمواج المتعالية من مكاني، ومن دون التفكير في المتغييرات قررت من أنني بإمكاني السباحة عبر هذه الأمواج للوصول إلى البجعة المصابة. وفجأة التفت الأمواج حولي على نحو قوي وسحبتني تحت الماء. وقد يبدو هذا أمراً طبيعياً في بعض الأحيان ولكن كل شيء حدث في حركة بطيئة بالنسبة لي. وعندما ظهرت إلى السطح ثانية كان أول ما تبادر إلى ذهني هو السباحة للضفة.

وبدلاً من السباحة دفعتني قوة التيار الجارف على نحو أسرع مع المياه المتدفقة السريعة. ووجدت نفسي أتجه نحو جدار من المعدن والخرسانة. وفي الواقع كان ذلك بوابة السد التي تسيطر على تدفق المياه. فكرت فيما لو أنني استطعت الإمساك بشيء ما فإن ذلك سيجعلني أتجه نحو ضفة القناة. ومع ذلك لم أكن هلعة، بل كنت أحاول فقط أفكر فيما أحتاج أنْ أقوم به، وكلما كنت على وشك أن أخرج يديّ من الماء كنت

أهوي من جديد تحت الماء. لقد كانت هناك قوة جذب هائلة كما لو أنها قوة خارقة تمسك بي وتسحبني إلى الأعماق.

أما الشيء التالي الذي أتذكره فهو أنني حاولت التمكن من الانسياب على الماء، لكن محاولتي كانت يائسة ومن ثم اضطررت للتنفس تحت الماء ولمسافة 50 قدماً حيث بقيت زمن لم أحدده تحت المياه البيضاء. بعدها أدركت أنني لا يمكن أن أحاول السباحة لأن التيار كان عنيفاً على نحو لا يصدق. وبدلاً من ذلك طفوت على سطح الماء على ظهري، ومن ثم ركزت على شجرة صفصاف كانت عند الجانب، وسمحت لنفسي أن تذهب مع التيار. وكان الشيء التالي هو أنني بلغت الشجرة وعلى نحو ما نجحت في جذب نفسي باستخدام أغصان الشجرة. بعدها قامت كارين، التي كانت قد وجهت النداء لإنقاذ البجعة، بالاتصال وطلب سيارة إسعاف لنجدتي.

وفي الطريق إلى المستشفى أدرك المسعف أنني كنت أعاني من انخفاض في درجة الحرارة. لكن الشيء المذهل أنه لم تكن هناك مياه في الرئتين أو في المعدة وإنما فقط خدش صغير على ساقي. أخرجت بعد ثلاث ساعات من المستشفى إلى المنزل وذلك بعد أن عادت درجة حرارة جسمي إلى وضعها الاعتيادي.

وفي اليوم التالي التقيت كارين في مكان الحادث ظهراً، وعندما تبادلنا الحديث عن ما حصل لي، أخبرتني بأنني بقيت تحت الماء لمدة 10 دقائق كاملة. واكتشفنا أن واحدة فقط من ثلاث بوابات في القناة كانت مفتوحة، وهذا يعني أن جميع المياه كانت تتدفق عبر ذلك ما خلق نوعاً من الدوامة التي ابتلعتني نحو الأسفل قبل أن يتم سحبي من خلال فجوة صغيرة تقع تحت البوابة.

وما زال حتى الآن ينتابني شعور بالغ بالامتنان من الخالق لبقائي على قيد الحياة. وتيقنت من أنني إذا كنت في ذلك الوقت أعتقد بأني سأموت فإن ذلك قد يحصل. ما زلت غير متأكدة تماماً من الكيفية التي جعلتني أتمكن من البقاء على قيد الحياة رغم أنني بقيت طويلاً تحت الماء. وقرأت بعد ذلك أن المياه الباردة تقلل حاجة الدماغ من الأوكسجين. في حين قال أشخاص آخرون إن المياه البيضاء تحوي أوكسجين أكثر، والتي ربما قد تكون ساعدتني على النجاة. وفي النهاية أن كل ما أعرفه هو أنني نجوت من الموت.

أحرقتني نيران الخدعة التلفزيونية

آبي كولينز تبلغ من العمر (52 عاماً)، مؤدية أدوار صعبة ومنسقة لبعض الأعمال الفنية والإعلانية. تعيش في سيري.

تقول آبي كولينز: كنت دائماً مهتمة بالرياضات والأنشطة التي تزود أقصى ما تستطيع من هرمون الإدريالين، فأنا أتزلج على المياه، وأمارس التزلج الطائر، والغطس، وأصارع الرياح، وأشارك في الراليات وأركب الخيل، وأشارك في عروض القفز وحالياً أتدرب لأصبح قائدة طائرة ومنذ 22 عاماً كان ذلك حلمي الوظيفي.

وفي عملي الأول كنت كالعميل المزدوج بالنسبة للممثلات، حيث أقوم بعمل بعض المشاهد الصعبة والخطرة والتي يمكن أن تشتمل على أي شيء بما فيها السقوط الخطر من إحدى الدرجات أو حادثة سيارة أو القفز من ارتفاعات عالية أو حتى حوادث الإنفجارات. وعادة يكون الخطر جزءاً من هذه المشاهد والتي أتقبلها وأتمتع بها على حد سواء. وبالتأكيد حياتي لم تكن خالية من وقوع الحوادث.

وقبل بضع سنوات وعندما كنت أصور فيلماً تجارياً للتلفزيون الحكومي عن مخاطر استخدام الهاتف المحمول أثناء القيادة. كان علي وحسب الخدعة المتفق عليها الزحف والخروج من السيارة المقلوبة قبل أن تنفجر ورائي. وبالنسبة للمشاهدين كان من المفترض أن أبدو وكأن الإنفجار سبب في إضرام النار في جسدي. وكنت حينها أرتدي بدلة قصيرة نارية توجد فيها مقاومة للحريق فضلاً عن مادة هيلامية على الجلد والشعر والتي تعد هي الحماية الأساسية في هذا النوع من الخدع. وفي ذلك الحين كنت أمسك بالمفجر وأُعطيتُ علامة محددة للوقوف على بعد عند الخروج من السيارة. وعندما وصلت إلى هناك كان من المفترض أن أبدأ بالتفجير لكن أحداً ما حرك العلامة إضافة إلى أن واحداً من منسقي التأثيرات الخاصة قد وضع الكثير من علب البنزين في السيارة لذلك عندما انفجرت وجدت نفسي قد حوصرت بين النيران التي تطايرت من كل مكان.

أتذكر تلك اللحظة بوضوح حيث أخذت الكرات النارية تتساقط من حولي على الجانب الأيمن، وكل ما شعرت به هو ذلك الألم الذي لا يصدق. كانت درجة الحرارة قوية جداً، بحيث شعرت كما لو أن شخصاً ما قد وضعني على طبق ساخن. إن النيران التهمتني قبل أن أنسحب، ما أسفر عن حرق في ظهري نتيجة للانفجار المخطط له. صرخت، ثم انبطحت على الأرض وعلى الفور تم صب ثاني أوكسيد الكربون من جانب أحد أعضاء فريق ترتيب الخدعة التلفزيونية. وقتها كنت في حالة صدمة. ولاحظت أن جلدي قد انتزع من يدي اليمنى وقشطت قطعة من بشرة وجهي وساقي اليمنى أيضاً. ومن ثم كل ما شعرت به أن هناك ألماً مبرحاً بسبب الحروق التي انتشرت على الجانب الأيمن من جسدي. نقلت على الفور إلى المستشفى حيث بقيت هناك لبضع ساعات من

الوقت وتمت معالجة الحروق وتغطية المناطق المتضررة بواسطة كريم خاص يحتوي على مضادات حيوية لمنع العدوى.

حتى ذلك الحين كنت دائماً أقلل عناصر الخطر في عملي أمام عائلتي. وكانت والدتي على العكس من ذلك تماماً. كانت تخاف بشدة من المرتفعات والمغامرات، لذلك لم أكن أريد لها أن تقلق بشأني. ودائماً ما كنت أحمي ابني ماركوس من مثل هذه الأشياء أيضاً. وكان عمره أربع سنوات فقط عندما وقع حادث الخدعة النارية، وفي الحقيقة أُحبط عندما شاهدني وكل هذه الحروق على جسدي.

وعلى الرغم من وقوع الحادث إلا أنني عدت إلى العمل بعد ذلك بيومين، والغريب، لم أكن خائفة من القيام بالخدع النارية مرة أخرى. وأنا من الأشخاص الذين يؤمنون بالقدر ولابد أن نؤمن بأنه حينما تحين لحظة الموت لا أحد يستطيع أن يغير ذلك سوى الخالق لذلك علينا أن نبعد عن تفكيرنا ذلك القلق الذي لا مبرر له. وأنا شخصياً أحب العمل في مجال الخدع الخطرة ولا أرى نفسي تبتعد عن ممارسة هذا العمل في غضون وقت قريب.

مظلتي صدمت عمود الكهرباء ولم أصعق

كلير سكوت أو المتألقة تبلغ من العمر (36 عاماً) وهي بطلة العالم في القفز بالمظلات. تعيش في أوكسفوردشاير.

تقول كلير: أحببت في البداية هواية القفز بالمظلات حينما كنت أدرس في جامعة بورتسموث. ومنذ ذلك الوقت شعرت بأنها تمنحني تلك المتعة والبهجة غير الاعتيادية حيث سرعان ما أصبحت مدمنة عليها. ومنذ البداية لم أكن طبيعية في موقفي من هذه الرياضة، ولدي قصص

لإثبات ذلك، بما فيها الطريقة التي دفعتني للحصول على لقب المتألقة وهذا يعني أن دواخلي كانت ترنو نحو مستقبل لامع في هذا المضمار.

كان الصباح جميلاً في أغسطس وكنت أحوم على ارتفاع **5.000** قدم في بالون يطير بواسطة الهواء الساخن. كنت عصبية المزاج للغاية علماً بأني كنت قد قمت قبل ذلك بحوالي **150** قفزة جوية بالمظلات، وهو ما يبدو عدداً كبيراً من حيث التجربة، ولكنني في الواقع لا أزال أفتقر إلى الخبرة نوعاً ما، وفي هذه المحاولة كانت تجربتي الأولى في القفز باستخدام المنطاد. وعندما أعطاني المشرف إشارة الانطلاق، ترددت للحظة قبل الشروع في إطلاق نفسي من فوق الحافة لكني أخيراً حلقت في الهواء.

وحالما بدأت بالهبوط، استبد بي الخوف. وكنت على ارتفاع حوالي **2.000** قدم وظللت أحلق لمدة **15** ثانية في حالة من الهبوط الحر قبل أن أبادر إلى فتح مظلتي. وكلما هبطت أدركت أنني في مكان قريب من الموقع المحدد للهبوط. والملاحظ أنه من السهل الانحراف عن المسار في حالة استخدام المنطاد، وهذا في الحقيقة بدا واضحاً فيما حدث لي. وفي هذه الأثناء كان عليّ العثور على مكان ما على الأرض للهبوط وبسرعة. ورأيت واحداً من أكثر القافزين خبرة كان قد ذهب في أول هبوط له في ميدان كبير لذلك، ومع ذلك اخترت البقعة التي أهبط عندها وجهت نفسي نحوها. وفي آخر لحظة لاحظت فجأة أعمدة الكهرباء وخطوط الطاقة الكهربائية تمتد عبر الميدان. وكان قد فات الأوان على تغيير أي شيء. وبعد ثوان قليلة أدركت أن قبة مظلتي قد أصابت واحداً من خطوط الكهرباء وأسقطته. ومع تعلق قبة المظلة مال جسدي بشكل سريع نحو الأمام، ثم توقفت فجأة من دون أي حركة.

ما زلت حتى الآن لا أفهم لماذا لم أتعرض إلى صدمة كهربائية. وكان شعوري الأولي هو تلك الدهشة العارمة من ذلك الإحساس الذي تكون بسبب بقائي على قيد الحياة. بعدها أدركت أنه يتوجب عليّ الابتعاد بسرعة من المنطقة. وبطريقة ما تمكنت من تدبير نفسي للخروج بأقل الخسائر من هذه المحنة التي لم أكن أتوقعها. وقد أدى خط الطاقة الساقط إلى اندلاع النيران رغم أنه قد لامس أرضاً جافة، وعندما نظرت إلى الأعلى رأيت قمة مظلتي المحترقة تتداخل في خطوط الطاقة الأخرى. وفي هذه اللحظة وصل كل من رجال الشرطة والإطفاء إلى المكان وقاموا بإنقاذ ما يمكن إنقاذه. وقد اكتشفت لاحقاً أن ارتطامي بالأسلاك أدى إلى قطع الكهرباء بالكامل عن القرية القريبة من مكان الحادث.

بعدها نقلت إلى المستشفى فوراً، وخضعت لمختلف الفحوصات والتحاليل، لأن الأطباء اعتقدوا ربما أكون قد أصبت بصدمة كهربائية. وبعد بضع ساعات تم إخراجي من المستشفى ولم أعان سوى من رضوض شديدة في أسفل الرقبة والتي بقيت تلازمني آلامها لمدة أسبوعين. ولم يصدق أحد، بمن فيهم نفسي، ما حدث لي وكيف استطعت النجاة من موت محقق. وعدت إلى القفز بعد شهر من الحادثة. ومنذ ذلك الحين حققت أكثر مما تحققه أي امرأة أخرى في مجال القفز بالمظلات في العالم. لقد قمت بإكمال أكثر من **5.500** قفزة وحصلت على بطولة العالم خمس مرات.

الآن أقوم بتوجيه التعليمات للقائم بالتوقيتات ومدربي فرق القفز بالمظلات الأخرى ولقد أنشأت مؤخراً مؤسسة تجارية لتوفير دورات للمبتدئين. وفي الحقيقة إنني أعمل في هذه الرياضة التي أحبها وما زلت أشعر بأني كنت محظوظة على نحو لا يصدق بحيث إني استطعت أن أنجو من هذا الحادث.

مادونا الشرق

فنانة متعددة المواهب فهي مغنية، وملحنة ومنتجة وناشطة فاعلة في مجال حقوق الإنسان. ومن خلال قدرتها على الانتقاء الموسيقي ولما تمتلكه من خلفية فنية اكتنزت بإرثها الغني، استطاعت أن تمد الجسور بين اللغة والموسيقى عبر الجمع بين موروثها الثقافي والموسيقي الواسع وتأثيرات ثقافة البوب. المغنية «ديا» وهو الاسم الذي اتخذته بعد أن أصبحت مشهورة تمتاز بصوت جميل مطرز بنكهة الشرق الذي انحدرت منه فهي باكستانية الأصل نرويجية الجنسية اتفق أهل الفن على أنها ظاهرة غنائية تستحق الدراسة، ولكنها من جانب آخر أثارت الجدل بسبب إحدى أغنياتها التي سجلتها على شريط فيديو وظهرت فيه ترتدي برقعاً وليس تحت البرقع سوى ملابسها الداخلية فيما كانت ترقص مع شبان سود. وقد تسبب هذا العمل في تلقيها تهديدات بالموت.

وربما أن اسم «ديا» غريب بعض الشيء على من لا يتذوقون موسيقى البوب لكن في واقع الحال أثار صوتها الجميل ضجة من الاهتمام دفعت

بأهل الاختصاص إلى متابعتها، كما أنها استطاعت أن تحقق ما عجزت عنه الكثير من الفتيات اللاتي سبقنها في عالم الغناء. ويمكن القول إن تشبيهها بجنيفر لوبيز وهو اللقب الذي يحب عشاقها أن يلقبوها به أو مادونا الشرق وهو اللقب الآخر الذي تحمله «ديا» لم يأتيا من فراغ.

وعن بداياتها فقد كان ألبومها الأول الذي حمل عنوان «ما الذي سأكون؟» بمثابة الانطلاقة الحقيقية لها، وإعلان صريح بولادة نجمة دخلت عالم الفن والموسيقى وهي متسلحة بعناصر النجاح وواضعة نصب عينيها أن تصبح شيئاً في عالم الغناء. وحتى ردود الأفعال كانت قوية إزاء ألبومها والذي أُعتبرَ ناجحاً وفقا لحسابات أهل الاختصاص. واستطاعت «ديا» من خلال موهبتها الفنية أن تضيف نجاحات أخرى رغم حداثتها في عالم الغناء. وتعتبر أول آسيوية اقتحمت هذا المجال الفني الصعب حيث فتحت الباب أمام البقية من الفتيات اللاتي يرغبن في ولوج عالم الموسيقى.

ويرى أحد المتخصصين أن التوقف عند تجربة مطربة البوب «ديا» يجعلنا ننظر إلى التالي وهو أنها شابة وجميلة وذكية لكن كل هذه الصفات لا يمكن أن تجعل منها مشهورة بهذه السرعة ما لم تكن تمتلك الموهبة الفنية، وقد استطاعت بفضل صوتها الجميل أن تذهل الغرب قبل الشرق. و«ديا» بلا شك فنانة موهوبة بالفطرة، فقد ولدت تلك الفتاة الآسيوية في أوسلو وتربت في كنف عائلة تنتمي للجيل الأول من المهاجرين الآسيويين المسلمين الذين قدموا إلى النرويج. ويبدو أن لثقافة أمها وأبيها أثراً كبيراً على شخصيتها وتنوع ثقافتها فوالدتها تمتلك موروثاً تداخل فيه الإرث الأفغاني والفارسي فيما امتزجت في شخصية والدها كل من الموروث الهندي والباكستاني. كما أنها تدربت في مراحل

مبكرة من عمرها على أحد عمالقة الموسيقى في باكستان «أستاذ بادي فتح خان».

وعلى النقيض من خلفيتها الكلاسيكية نجد أن التذوق الشخصي في الاستماع الموسيقي كان دائماً يتجه عند ديا نحو الأغاني الحديثة. وتقول ديا: «إن العيش في البلدان الاسكندينافية جعلني أعيش هوس البوب فأنا عاشقة لمادونا ومايكل جاكسون وغيرهم». وبعد فترة من الزمن تحولت فعلياً نحو سماع «الهب هوب» فضلاً عن الروك، فأنا أعشق «دي لا سول» و«دري» وإلى آخره من الأعمال التي تفاعلت معها وتركت أثراً كبيراً على تطوري الموسيقي وكذلك كان تأثيرها واضحاً على أدائي الموسيقي والذين لا أنكر أني تطورت بفضلهم.

ويقول أحد النقاد إن «ديا» تدربت على الموسيقى الكلاسيكية لكنها ذات ذائقة تضج بالحداثة وكلا العنصرين صقلاً وعيها وإدراكها الموسيقي وكينونتها الموسيقية الفريدة التي مهدت لها طريق النجاح.

وولدت ديا في عام 1977 في النرويج بدأت بالغناء وهي بعمر سبع سنوات وتدربت تحت أيادي فنانين مشهورين مثل أستاذ فاتح علي خان وأستاذ سلطان خان في معهد التدريب الصوتي الكلاسيكي في الهند. وظلت كواحدة من أفضل الفتيات اللاتي بقين يتابعن التدريب مع هذه النخبة الرائعة من الفنانين، الذين كانوا مسؤولين عن زرع ذلك التناغم بين الموسيقى الشرقية والغربية في دواخل ديا. وأطلقت ديا ألبومها الغنائي وهي لا تزال بسن الخامسة عشرة وكان عنوانه «بكل أنواع الضوء» ورغم أنه كان يحمل اسمها القديم ديبكا إلا أنه كان في الواقع الولادة الحقيقية لاسمها الجديد في النرويج. وكانت أغنيات الألبوم بالنرويجية غير أنها مزجت بين الفلكلور الكلاسيكي الهندي مع البوب والجاز.

وأدى نجاحها الفني وحضورها الرائع على الساحة الغنائية إلى حصولها على جائزة الثقافة التي تمنحها الحكومة بحيث إنها سرعان ما أصبحت شخصية شعبية ومعروفة. وفي غضون ذلك ساعدت ديا بشكل غير رسمي في برنامج حملت فيه عنوان «طفلة البوستر» والذي كان عبارة عن حملة تهدف لدمج المهاجرين الآسيويين في المجتمع النرويجي. وبحلول عام 1998 شعرت ديا بحاجة حقيقية إلى أن تكون في ذلك العالم الذي تعشقه فانضمت إلى ستيف فارجنولي الذي صنع عدداً من النجوم والنجمات وانطلق الاثنان بالعمل على ألبوم جديد وتوطدت علاقة صداقة قوية بينهما ولكن قبل أن يكملا العمل يصاب ستيف بالسرطان ويتوفى في عام 2001 وشكلت حادثة الوفاة انتكاسة كبيرة لها بحيث واجهت صعوبة في العمل مع آخرين. ويقول بعض المتابعين إنها اعتزلت الموسيقى فترة من الزمن لأنها وجدت من الضروري أن ترتاح قليلاً قبل أن تختار مع مَن تعمل.

ولم تصدر ديا ألبومها الثاني إلا بعد أربع سنوات. وقد احتوى على عشر أغان حققت نجاحاً كبيراً عبر تلك اللمسات الواضحة لموسيقى البوب الغربية التي تداخلت على نحو جميل مع الأنغام الفلكلورية الباكستانية والإيقاعات الهندية التي تحمل عبقاً شرقياً خالصاً. ولم تكتف ديا بتقديم ألوان غنائية جميلة وإنما أدت أغنياتها بخمس لغات هي الأوردو والهندي والبنجابي والبشتو والإنجليزية وقد سلطت عليها الأضواء الإعلامية بشكل كبير لأنها جاءت بصوت جديد وصورة مختلفة عن الألوان السائدة.

ومنذ ألبومها الثاني عملت ديا مع بعض كبار الشخصيات في صناعة الموسيقى فعلى سبيل المثال سجلت ألبومها الجديد مع دارين برندل وهو الشخص الذي عمل من قبل مع مادونا وغيرهن من الفنانات. وفي عام

2002 قبلت تحديا آخر تمثل بالتعامل مع أحد أكبر شركات صناعة الموسيقى في الولايات المتحدة حيث من المؤمل أن تنطلق ديا وفريقها في رحلة صعود أخرى من خلال تسويق أغانيها هناك. وكانت نتيجة تحديها تقديم ألبومها الجديد الذي حمل اسم «خطة خاصة بي» والذي تمخض عن إفراز مسارين في نجومية ديا أولاً تأكيده الموهبة التي تتمتع بها ديا وثانياً أنه كان بمثابة انعكاس حقيقي عن صقل كينونتها الموسيقية والتزامها الفني وتصميمها على النجاح. وتشترك ديا في تأليف وإنتاج كل أغنية في الألبوم والتي تكون عبارة عن إنتاج شخصي مباشر إضافة إلى كونه نمواً فنياً يشير إلى تحول واضح في أدائها من الفوضى والصراع إلى حالة من النضج والاستقرار الفني. ويلاحظ المتابعون بأنها بدأت تقدم تشكيلة معاصرة من البوب صهرتها بنكهة الهب هوب والروك عاكسة تلك الروح التي تحملها من جذور صوتها الشرقي.

وبسبب النجاح الذي حققته أصبحت ديا تنتقل بين المملكة المتحدة والولايات المتحدة حيث كان لها انطلاقة لا تقل عن انطلاقتها الأولى. ورغم أنها تلقب بمادونا الشرق لما تمتلكه من شهرة في عدد من البلدان الأوروبية إلا أنها واجهت تهديدات بالموت لأنها سجلت شريط فيديو تظهر فيه وهي ترتدي برقعاً وليس تحت البرقع سوى ملابسها الداخلية وترقص مع شبان سود. وكان لتلك الأغنية تغطية إعلامية كبيرة انعكست على حياة ديا الاجتماعية. فقد حققت هذه الأغنية شهرة دفعت ضريبتها نفسياً. ولكي تبتعد عن الأضواء والأخبار والصحافة حاولت أن تغير أماكن نشاطاتها.

وقد أدركت ديا حجم سلوكها الخاطىء وما قد يترتب عليه من تداعيات كثيرة الأمر الذي حدا بها إلى استئجار حراس شخصيين.

وعمدت إلى أن يكون لها ظهور شخصي مخطط له لكي تتجنب أي مضايقات قد تواجهها لا سيما أنها تسلمت تهديدات بالقتل في حينها.

وتقول ديا لا أستطيع التجول في المملكة المتحدة من دون حرس شخصي وسأكون كاذبة لو قلت إن أي إساءة من المتعصبين دينيا لا تخيفني أو ترعبني. ويعتقد أن هذا الشريط الذي فسر على أساس أنه دعوة من أجل حقوق المرأة والذي كانت ترتدي فيه ملابس لا تختلف عن ملابس الراقصات التي تظهر على المحطات التلفزيونية كان انعطافة في حياتها وجعل لها أعداء كثيرين وإن تلاشوا تدريجياً.

وتقول ديا: أنا لست قاتلة ولا أؤيد العنف أو الكراهية على الإطلاق وقد فكرت بالاعتزال والاختفاء لكن تفكيري كله بالموسيقى وهي الشيء الذي كنت أفعله طوال حياتي منذ كنت في السابعة فهذا الذي أعرفه وهو الشيء الوحيد الذي أحبه ولماذا يجب إن أعتزل في حين إن ذلك لا يسر بعض الناس وتضيف ديا: أحترم المرأة التي تختار ارتداء الحجاب إذا كان خيارها ذلك، وأحارب من أجل هذا الخيار إذا اختارت المرأة عدم ارتداء الحجاب، لأني أشعر بالشيء نفسه ويجب ألا ندفع ثمناً ما بسبب خياراتنا.

وعلى الصعيد الفني يقول ناقد موسيقي غربي: بعيداً عن أغنياتها التي أثارت ضجة كبيرة، بصراحة أنه لا يوجد فنان أو فنانة آسيوية امتلك القدرة على مواصلة النجاح في هذا المجال الذي هو غربي خالص لكن ديا ليس بالضوء الذي يبرق لمرة واحدة في كبد السماء بل أنها ذلك الصوت الذي يؤكد موهبة مقتدرة على التواصل وتحقيق ما عجز عنه الآخرون وضوء نهار ساطع في سماء البوب. ويذكر أنه في خضم الضجة الإعلامية التي حدثت بسبب أغنيتها فإن أحد أكبر المحطات الآسيوية

المتخصصة بالموسيقى امتنعت عن بث أغنياتها بعد أن تلقى كادرها بعض التهديدات.

نساء في السماء

ثلاث قصص عن نساء رفضن العيش على الهامش، بل رفضن فرص العمل التي أتيحت لهن للعمل في الوظائف المكتبية واخترن نشاطات بعيدة كل البعد عن الجدران والأبواب المغلقة واتجهن إلى المغامرة في فضاءات مختلفة من أجل كسر حاجز الرتابة الذي اعتادت المرأة البسيطة تفضيله. فمن المعروف أن المرأة تميل بطبعها إلى الوظائف الإدارية البحتة غير أن هذه النماذج أرادت اقتحام الحياة من أوسع أبوابها فالأولى تعمل كطيار في طائرة مقاتلة في القوة الجوية الملكية، وشاركت في عمليات قتالية في العراق، في حين إن المرأة الثانية والتي يبلغ عمرها الأربعين قد اختارت القفز الحر من ارتفاعات شاهقة وكسبت التحدي وتفوقت على الرجال. أما المرأة الثالثة والتي كانت الأصغر كونها فتاة في ريعان الشباب فاختارت إنقاذ الناس من الغرق. ولم تكتف بذلك بل ذهبت إلى الهند لتمارس المهنة التي عشقتها ولتصبح هناك نجمة مشهورة حيث كان الناس يصطفون من أجل التقاط صور معها.

الطيار

جولس فليمنغ تبلغ من العمر (30 عاماً) تشغل منصب طيار في القوة الجوية الملكية. وهي تعمل من محطة مارهام نورفولك التابعة للقوة الجوية الملكية، وبمعية زوجها أوليفر (26 عاماً) الذي هو طيار أيضاً في نفس المكان.

«كنت من الأطفال الذين يحبون الطيران عندما بدأت أكبر شيئاً فشيئاً. كان والدي يمتلك حصة في طائرة، وعندما كان يصطحبنا في جولة أحاول الجلوس على الجانب الأيمن في المقدمة بحيث يمكنني أن أرى كل شيء في حين أن شقيقتي الصغيرتين (فيكي وسيان) يهربان خوفاً إلى المقاعد الخلفية».

وعندما وصلت إلى سن السابعة عشرة أعطاني أبي بضعة دروس في الطيران. وقد أحببت التجربة وحجز لي مقعداً للاشتراك في دورة لمدة ستة أسابيع للحصول على رخصة الطيران الخاصة بي. ولأني كنت أرغب في ممارسة التحليق في الجو تقدمت إلى القوة الجوية الملكية، وبعد 60 ساعة من التدريب الأساسي تم اختياري للطائرات النفاثة السريعة.

إن الطائرات النفاثة السريعة جعلت الناس يفكرون في الكيفية التي دفعت امرأة أن تختار مثل هذه الطائرة التي تعد من التقنيات المتطورة والمعقدة. عموماً إن الفكرة لم تكن بهذا البريق ولكن هذا الأمر بات من الإثارة التي لا تُصدَق. وفي الواقع فهناك 250 طياراً للطائرات النفاثة السريعة في القوة الجوية الملكية باستثناء 10 فقط من حصة النساء. استطعت أن أحصل على علاقات جيدة مع الرجال ولكني لم أحاول أن أكون واحدة منهم. ومن الطبيعي أن تحصل على مزيد من الاحترام لو كنت نفسك.

وبعد التدريب بقيت في القوة الجوية الملكية في وادي سنودونيا بصفة مدرب. ثم بعد ثلاث سنوات بدأت في التدريب على المستوى الأقل، أي في مجال الأسلحة التكتيكية والدفاع الجوي. وقد حلقت في النهاية بالطائرة بسعتها القصوى، وكانت تلك المحاولة مبهجة جداً بالنسبة لي.

في عام **2006** بدأت المرحلة الأكثر إثارة في الجانب التدريبي، حيث جربت طائرة من نوع تورنادو **GR4** وهي طائرة عمليات والتي تحلق بسرعة الصوت. وفي عام **2008** أرسلت إلى العراق وفي اليوم الأول من تحليقي فوق البصرة وعبر سماء واضحة وضوح الشمس نظرت إلى أسفل ورأيت الشوارع التي لم أرها إلا في الأنباء. حينها كنت أفكر في المقابلة التي أجريت لي في القوة الجوية الملكية وتذكرت عندما سألوني كيف سيكون شعوري عند الذهاب إلى الحرب، أجبتهم: بأنه مع التدريب الجيد لن أشعر بالذعر. وكنت حينها على حق.

كانت آذاني تثب إصغاء عندما أسمع عن كمين على الراديو أو تحذيرات من تفجيرات انتحارية في بغداد. ومن الطبيعي أن تشعر بالخوف لكن هذا عملي الذي يتلخص بالمساعدة والاعتناء بالرجال الموجودين على الأرض، وذلك يجعلني أشعر بهدوء تام.

كان الطقس في العراق واحداً من أكبر التهديدات التي تواجهني، فضلاً عن أن التزود بالوقود ـ الذي يستوجب ربط طائرة إلى أخرى في منتصف الرحلة ـ خلال العواصف الرعدية كان واحداً من أصعب العمليات الجوية. ولابد من الإشارة إلى أن الاضطراب في هكذا تطبيقات أمر لا يمكن تصديقه، فهو مرهق للأعصاب ولكنني تمكنت من إبقاء الطائرة مستقرة بما فيه الكفاية لإعادة التزود بالوقود والعودة إلى معسكر القاعدة بسلام.

في سبتمبر **2008** تزوجنا أنا وأوليفر في قاعدة كرانويل - التابعة للقوة الجوية الملكية - التي تقع في لنكولنشاير. كانت مناسبة خاصة جداً وأفراد من كلا سربينا حضروا للاحتفال معنا. وذهبنا في شهر العسل في النهاية إلى جزر المالديف رغم الانتظار الذي استمر حتى شهر مايو لأن أوليفر كان في مهمة في الخارج. ومع ذلك فهي من المنغصات التي أعتدنا عليها. وفي القريب ستكون وجهتي المقبلة أفغانستان. ولأنني لا أميل للعمل في المكاتب فدائماً أبحث عن التحدي التالي. أعتقد أن ذلك جزء من كينونتي.

سيدة القفز الحر

تارن هوليس أم لطفلين وتبلغ من العمر (**40** عاماً) من مدينة بدفورد، تعمل حالياً ضمن تشكيل من مدربي القفز الجوي الحر ومدرب في مجال طيران الأجسام (بودي فلايت).

«معظم النساء تسعى للحصول على قصة شعر جديدة عند الانتهاء من علاقة ما أو تفكر بمظهر وشكل جديد. أما أنا فقد قفزت من الطائرة وحلقت في السماء كالطير. في البداية كنت أواجه معارضة من شريكي السابق لأنه من النوع المسيطر جداً ولا يحب أن أقوم بأي شيء مثير. لذلك بعد انفصالنا في عام **1998** التقيت رجلاً كان يتعلم كيفية الطيران في الهواء. ويبدو أن تلك اللحظة كانت نقطة مفصلية في لقائنا الأول لأنني سرعان ما أعلنت موافقتي على القيام بالقفز الحر، واحداً خلف الآخر وحددنا موعداً للبدء بركوب مغامرتنا».

كنت عصبية ومقتنعة من أنني قد أموت. حاولت ترتيب كل شؤوني في اليوم الذي سبق الموعد، وتأكدت من أنني دفعت كل الفواتير المستحقة. وفي الطائرة كانت نبضات قلبي تتسارع بشكل غير طبيعي.

وعندما حانت لحظة القفز أجبرت نفسي على القيام بذلك متحدية ذلك الخوف الكامن في داخلي. عموماً أن ذلك الجزء من الثانية قد غير حياتي. لقد تملكني توقع من أن شعوراً داخلياً سوف يستحوذ علي كذلك الذي يحدث عندما نركب في «لعبة الموت»، أي أنني سأشعر كما لو أني أسقط من خلال الهواء، ولكن بدلاً من ذلك كان هناك شعور بحرية كاملة. لقد اشرأبت كل أحاسيسي بقدرتي على التحليق في الهواء، وقد دُهشتُ من الطريقة التي كانت بها الانسيابية والهدوء عندما فتحت المظلة. عشت حالة من الاندهاش ولم أستطع النوم في تلك الليلة، ولم أستطع أن أمنع نفسي من الحديث للناس عن هذه التجربة الرائعة. وبعد المحاولة الأولى تحولت إلى عاشقة لهذه الرياضة حيث انتهى بي الأمر إلى القيام بدورة تدريبية في إيلوي، أريزونا في عيد ميلادي الثلاثين. وتعتبر إيلوي واحدة من أكبر مناطق الإسقاط للقفز الحر. وهناك التقيت أبطال العالم في هذه الرياضة. وكانت بمثابة اللهم حيث أدركت حينها أنني أرغب في أن يكون القفز أكثر من مجرد هواية.

لقد عملت من قبل كممرضة بيطرية لمدة **14** عاماً وأنجبت ابنتين هما «تشيلسي» التي تبلغ من العمر **17**عاماً، و«نيامه» التي تبلغ من العمر **12** عاماً، ومع ذلك فكرت بتغيير مساري الوظيفي لأستطع أن أريهم أن الإنسان قادر على تحقيق أي شيء في الحياة. لقد قمت بإكمال أكثر من ألفي قفزة حتى الآن، والجميع مندهشون من قدراتي في تنفيذ القفزات.

ويسألني الناس عما إذا كان القفز بالمظلات أمراً مخيفاً؟ وبصراحة إن الإجابة فيها الكثير من التفاصيل فقد كنت قد شهدت ذات مرة عطل إحدى المعدات. وكان ذلك الحادث في وادي بيريس في ولاية كاليفورنيا في عام **2005**. حينئذ لم تفتح مظلتي الأساسية لذا ذهبت مباشرة إلى مهاراتي الاحتياطية التي حصلت عليها في التدريبات، وتخلصت من

المظلة الرئيسية وسحبت العتلة الاحتياطية. حدث كل شيء بسرعة لكني شعرت إنه يجري ببطء شديد في ذلك الوقت. لقد كان موقفاً مرعباً جداً بالنسبة لي حينما أفكر فيما يمكن أن يحدث لي لو أن الأمور لم تسر على ما يرام. واليوم إنني مقتنعة تماماً من أن تدريباتي قادتني إلى أن أجتاز ذلك الاختبار، كما أنها لم تضعني في محل أن أفكر في ترك القفز مرة أخرى.

إن بناتي فخورات جداً بأمهن، وتستمتعان بهذه الرياضة أيضاً. وقد نفذت تشلسي أول قفزة في أسبانيا في عيد ميلادها السادس عشر وعلى الرغم من أنها مجرد لهو، كما تفعل المراهقات عادة، إلا أنني أعتقد أنها تستمتع بهذه الرياضة. أما «نيامه» فهي تتوق إلى القيام بهذه الرياضة أيضاً. وستقوم بالقفز من الطائرة بمجرد أن تبلغ من العمر ما يكفي، وأن بإمكاني الانتظار لأتبادل الخبرات معهن.

امرأة مهمات الإنقاذ

«كيري بيلويت» شابة تبلغ من العمر (23 عاماً) من «ويست بينويث» تعمل في مجال الإنقاذ على شواطىء كورنوال حيث رأت فيه ذلك العمل الإنساني المحض.

الإنقاذ أو مهنة الحراس المنقذين بدأت العمل بها في أيام العطل والإجازات لكنها أخذتني إلى أماكن لم أتوقعها مطلقاً. كنت دائماً أحب الماء والتنافس في سباقات العوم لاسيما عندما كنت أكبر شيئاً فشيئاً في هذه الدنيا. لذا كان الحصول على عمل كعاملة إنقاذ في مجمع للسباحة خطوة منطقية ولكني أمضيت معظم الأيام فقط أطلق صافرتي التي أضعها على فمي للأغراض التحذيرية.

وبصرف النظر عمن يقوم بإخراج الطفل الغريب من الماء عندما يذهبون إلى الأعماق غير المخصصة لهم فنادراً ما كنت أترك الكرسي من أجل القيام بعملية إنقاذ حقيقية. لقد كان العمل ينصب على منع الحوادث بدلاً من التعامل معهم، وشعرت أن ذلك يقيدني. لذا أردت تحدياً أكبر مع مزيد من الحرية، وكان الجواب الشافي لرغباتي على الشاطىء.

كنت دائماً أقضي الصيف على الشاطئ في السباحة، وركوب الأمواج والتجول مع الأصدقاء لذلك فإن العمل هناك يكاد يكون كالهدية بالنسبة لي. إن العمل في مجال حرس الشواطىء يحتاج إلى مستوى عال في اللياقة البدنية والسباحة وبفضل قدراتي الجيدة في السباحة استطعت الإبحار في هذا المجال من خلال التدريب. كما أن المنقذ يكون أيضاً بحاجة إلى فهم جيد للبحار ومخاطرها، ولأنني نشأت على الساحل فكنت على دراية تامة بهذه الأجواء. ومن بين المهارات التي تكونت في داخلي هو استشراف الحالة الخطيرة بشكل فوري.

في أحد الأيام الرطبة، والرياح سيئة جاء رجل إلى الشاطىء لتجربة طائرة تزلج جديدة. عموماً الناس لا يدركون مدى الخبرة التي يحتاجونها لتكون جاهزاً للقيام بمحاولة ممارسة الرياضات المائية في الظروف الصعبة. لقد أمسكت الرياح القوية بطائرة التزلج ورمتها إلى حوالي نصف ميل خارج البحر.

وعلى الرغم من أن الأمطار تجعل الرؤية سيئة لكني كنت أرى أن ذلك الرجل قد عَلَقَ، وبدا خائفاً وممسكاً بالحجارة. كانت لدينا طائرات زلاجة على الشاطىء، لذا قفزت على متن واحدة منها. وحينها كنت بحاجة للوصول بسرعة إليه، واجتياز الأمواج العالية والصخور. وفعلاً اقتربت منه بما فيه الكفاية واستطعت سحبه نحو طائرة التزلج. وعلى الجانب الآخر وفي ذات الوقت كان فريقي على أهبة الاستعداد لتقديم

الدعم لنا عندما عدنا. لا أعتقد أن هناك عملاً أفضل من الإنقاذ يمنحك الارتياح وأنت تساعد شخصاً ما على النجاة.

وفي نوفمبر 2008 أخبرني بعض الأصدقاء عن فرصة عمل في مجال الإنقاذ في ولاية «جوا» على الساحل الغربي في الهند. وبلغت بي الإثارة حدودها القصوى حيث توترت الأعصاب لفكرة أن أكون أول امرأة في الهند تتولى الإنقاذ. ولم تكد قدماي تطأ الأرض في المطار حتى شعرت بأني محاصرة لعقد مؤتمر صحفي مشترك مع مئات الصحفيين الذين انهالوا عليّ بأسئلتهم. وفي اليوم التالي كانت صوري على صدر الصفحات الأولى لجميع الصحف الهندية. وفي الأسابيع القليلة الأولى من بدء عملي كان الناس يصطفون على الشاطىء لالتقاط الصور التذكارية معي. لقد أصبحت أحد المشاهير على الصعيد المحلي، وكان ذلك مصدر متعة لي.

كانت ولاية «جوا» مختلفة تماماً عن «كورنوال» لأن بعض الناس لم يسبحوا قط في حياتهم ولكنهم مجرد أن يرموا بأنفسهم في الماء. كنا على الدوام نعمل لإنقاذ حياة الآخرين. لقد ساهم فريقنا الذي يتكون من عدد من المتطوعين في إنشاء نظام جديد للإنقاذ، وبعد موسم واحد كان معدل الغرقى قد انخفض إلى النصف.

لاشك، فأنا لا أستطيع أن أصدق إلى أي مدى قد أخذني عشقي للإنقاذ، كما لا يمكنني على الإطلاق أن أرى نفسي تعود إلى الوراء، أو أن أقوم بعمل أكون مقيدة فيه بأربعة جدران.

داخل عقل مجنونة

كان عمر أليونر لونجني 17 سنة فقط عندما بدأت تسمع أصواتاً تدوي في رأسها وتتحدث إليها. وبعد أسابيع قليلة وجدت الطالبة الجامعية التي كانت تدرس للحصول على شهادة البكالوريوس نفسها مصابة بالشيزوفرينيا حسب رأي الأطباء الذين أخبروها بذلك. وقد أُدخلَتْ بشكل إجباري إلى جناح المرضى النفسيين الذين يخضعون للرقابة لتبدأ رحلتها مع المرض الذي تطور لأسباب مختلفة وكاد أن ينتهي بها الأمر إلى حال أي مجنون يجوب الشوارع.

ألينور فتحت قلبها وتحدثت عن تجربتها المرعبة وكيف أنها كافحت من أجل أن تستعيد في نهاية المطاف وضعها الطبيعي بمساعدة أحد الأطباء النفسيين. وتعيش ألينور وعمرها 25 سنة حالياً مع أختها المرضة ليفيا 27 سنة ووالديها جون الموظف المتقاعد 61 سنة وأمها المعلمة شيرلي 58 سنة.

ضغوط الانتقال إلى الجامعة

تقول ألينور وهي فتاة جميلة جداً ومن عائلة محترمة: «يا للخجل لقد سمعت جيداً كلمات الدكتور عندما كنت ممددة على السرير في جناح المرضى النفسيين ذي الأبواب الموصدة حيث كنت حينها بعيدة عن عائلتي وأصدقائي. راودني شعور قوي بالضياع والوحدة والرعب لم أعشه من قبل طيلة حياتي. شعرت بالخجل ـ وكما لو أني من أجرمت ـ عندما شخصت حالتي بأني أعاني من مرض نفسي أو كما قيل لي؛ «مشاكل عقلية». نهضت من سريري وأسرعت نحو الحمام حيث لفظت ما في داخلي، وربما كان ذلك بسبب التأثيرات الجانبية للعلاج الذي أتعاطاه. شعرت بالارتباك والحيرة والاضطراب الذي حاصر أفكاري. وبلغ الحال بي أنني صرت لا أستطيع أن أتذكر بالضبط كم من الزمن قضيت بالمستشفى. نظرت إلى وجهي في المرآة وصدمت لأني بصعوبة كبيرة استطعت أن أحدد من أكون، فهل أنا نفس الفتاة التي عمرها 17 سنة والتي تركت منزل العائلة لأول مرة قبل بضعة أسابيع وكانت في غاية السعادة في رحلتها الأولى إلى الجامعة.

ثم تساءلت: لماذا أنا هنا؟ حينها كنت ما أزال لا أفهم حقيقة وجودي. لكني أتذكر أن الأيام الأولى في الكلية وَلَدَت ضغطاً نفسياً هائلاً عليّ. ومثل الكثير من الطلبة المستجدين شعرت بالحنين للبيت والعائلة وكنت غير واثقة من نفسي بعكس ما كنت عليه في المدرسة الثانوية والإعدادية.

جعلني وصولي للكلية أشعر بالتمزق بين مواصلة العمل الجاد أو إعادة خلق نفسي كفتاة تحب الحفلات والمناسبات الاجتماعية. كنت أرى جميع من حولي يتظاهرون بما ليس في دواخلهم في حين بدا الضغط المتواصل في هذا الجانب هائلاً. ومع مرور الوقت، ولكن ببطء تعرفت

على بعض الأصدقاء وتلمست طريقي حول الحرم الجامعي إضافة إلى مبادرتي بالتحدث عن نفسي في بعض الدروس التي تتيح مثل ذلك. غير أن الأمور يبدو لم تتحسن بالشكل الذي أتوقعه. وبعد ذلك وذات صباح سمعت صوتاً واضحاً في داخل رأسي يقول: الآن إنها ذاهبة إلى المكتبة. وبعدها بدأت أسمع الصوت ثانية وبمناسبات متكررة. لم يقل في البداية شيئاً دراماتيكيا ولم أجد فيه تهديداً على الإطلاق ولكن كان واضحاً. وأتذكر أني استمعت إلى برنامج إذاعي تناول هذه التجربة كحالة تحدث أحياناً عند أصحاب البحوث الذين يكونون وحدهم أو لسجناء الزنزانات الانفرادية.

وفي بعض الأحيان كان الصوت مؤشراً مفيداً بالنسبة لي عن ماهية أحاسيسي الحقيقية كأن يكون مؤشراً عن غضبي في أعقاب انتهاء البرنامج التعليمي تحديداً عندما يوجه لي نقد لاذع غير عادل. ووجدت أنه حينما أعود في اليوم التالي إلى الفصل لأطرح وجهة نظري يستأنف الصوت صداه الاعتيادي في رأسي بنبرته الهادئة الاعتيادية وذلك ما أكد لي بأنه يمكن أن يشكل بعض الأعراض النفسية غير السوية، واعتقدت مرجحة أنها على الأكثر ظاهرة لا تتجاوز أفكاري الخارجية.

وجاءت اللحظة الحاسمة وهي لحظة ارتكابي للخطأ القاتل، عندما وثقت بصديقة لي وأخبرتها بما أسمع. لن تغيب عن بالي ولن أنسى ذلك الرعب الذي ارتسم على محيا صديقتي وهي ترجع إلى الخلف وتكرر ما أخبرتها به: «أنت تسمعين ماذا؟» وعندما أكدت لها أني أسمع صوتاً في رأسي، بدت صديقتي مرتعبة حقاً وأخبرتني بأني بحاجة ملحة إلى مقابلة طبيب الكلية بأسرع وقت ممكن. وفي الحقيقة لقد أخافني رد فعلها وأخذت موعداً على الفور وحينما أخبرت الدكتور عن الصوت أصبح وجهه صارماً، وأصر على تحويلي إلى أخصائي في المستشفى. ومع

أن ما كنت أحتاجه هو التحدث لشخص عن مشاعر القلق والتوتر بشأن تدني احترامي لذاتي منذ أن وصلت إلى الكلية وجدت الطبيب النفسي يصر على أهمية ظهور هذا الصوت، وكما لو أننا كنا نناقش مسألة رياضية تعني فيها هذه التجربة تلقائيا بأنني يجب أن أكون مجنونة.

وحتى عندما تحدثت عن برنامجي الدراسي لتليفزيون الطلبة كان بإمكاني أن أعرف ما تريد قوله المذيعة من خلال وجهها. ورغم تجولي في الغرفة كفتاة اعتيادية قد تعاني من الضغوط لسبب ما إلا أنه بالنتيجة قد تم تشخيص حالتي بشيزوفرينيا الارتياب.

شيزوفرينيا الارتياب

وفي اللقاء الأول كانت الأخصائية في الأساس تناقش معي إمكانية العلاج كمريضة داخلية في مستشفى نفسي فقد أخضعتني إلى التعاطي مباشرة كورس رسبرايدون، وهو علاج قوي مقاوم للحالات النفسية السيئة وله آثار جانبية من بينها الزيادة في الوزن وارتعاش لا إرادي والصعوبة في المشي. ومنذ تلك اللحظة شعرت بالانقطاع والابتعاد ليس عن أصدقاء الجامعة وحسب بل حتى عن عائلتي أيضاً. وفجأة لم أعد تلك الشابة المتعلمة التي تنتمي للطبقة الوسطى والتي تنتظر مستقبلاً بل أصبحت مريضة عقلياً ذات نوايا خطرة.

وبسبب التحسس الشديد من الحالة لم أخبر أي شخص من أنه قد تم تحويلي إلى لأخذ جلسات أسبوعية مع ممرضة نفسية، وإضافة إلى ذلك وكإجراء إضافي كان لي موعد شهري مع طبيب أخصائي. وخلال هذه المقابلات حاولت ثانية أن أتحدث بشأن بحثي عن كينونتي منذ أن تركت منزل العائلة غير أن هذه المشاعر الاعتيادية جداً كانت تفسر مباشرة كأعراض لعقل يشكو المرض. وبالرغم من أني لا أعتقد بكوني

مجنونة إلا أني أثق ـ وكما يفعل معظم الناس ـ بالمقابلة العلاجية للأخصائي النفسي بشأن غرائزي الشخصية.

وفي لقائي الثاني مع الأخصائية بعد شهرين اقترحت عليّ الدخول للمستشفى لمدة ثلاثة أيام فقط لإجراء بعض الفحوصات. ومن جانبي ولأجل عدم إقلاق والدي وثقت بموجهي الخاص الذي أكد أنه سيتحفظ على طبيعة مرضي حينما أخبرته بالتفاصيل.

في مستشفى المجانين

لقد صدمت عندما وصلت إلى مستشفى الأمراض النفسية والذي كان ذات يوم ملجأ في العصر الفكتوري فهو مستشفى من الطراز القديم له نوافذ مزودة بقضبان حديدية وأبواب محكمة الإغلاق. ولمزيد من الرعب فإنه مزود بأجنحة مختلطة، والأكثر إيلاماً كنت الأنثى الأصغر سناً هناك وذلك ما جعلني أشعر بضعف أكبر. وخلال الأيام القليلة التالية خضعت لفحص روتيني للدماغ حيث لم يجدوا أي شيء وببساطة أعطيت علاجاً وتركت وحدي. وفي نهاية اليوم الرابع شعرت بأني بقيت أكثر مما ينبغي في المستشفى، لذا طلبت منهم أن يخرجوني غير أن المفاجأة كانت تهديد بالحجز الإجباري فيما لو حاولت الانصراف.

شعرت بالرعب المطلق واتصلت بعائلتي بعد نهاية الأسبوع الأول وطلبت منهم المجيء لمساعدتي. وفي الوقت الذي وصلت فيه والدتي كان مفعول الدواء قد بدأ أثره وجعلني مرتبكة وميالة للنوم وشعرت بعدم قدرتي على أن أوضح لها سبب وجودي في هذا المكان وما هو الخطأ الذي حصل معي. وفي الوقت نفسه كان الصوت الهادئ في رأسي قد اقترن به صوت آخر حاد النغمة وقاس. وفي الأسابيع التالية ازدادت الأصوات ـ سواء ذكورية أو أنثوية ـ تدريجياً وأخذت ترعبني إلى أن وصلت تقريباً

إلى 12 صوتاً لكن الصوت الأكثر هيمنة وتهديداً كان صوت رجل. وفي البداية كنت أسمع صوته فقط، لكن خلال الشهر الثاني من وجودي بالمستشفى صرت أستيقظ على صوت هلوسة من هذا الرجل الذي أصبح يقف إلى جوار سريري وأراه ضخم الجثة ومتلفحاً بالسواد وبيده كلاب حديدي وكأنه شخصية من شخصيات أفلام الرعب. واعتقدت أن ذلك من جراء العلاج الذي أتناوله وبسبب كآبتي المتأتية من حجزي داخل المستشفى. غير أن الأخصائية أقنعتني بأنها أعراض أخرى عن الشيزوفرينيا الجنونية. وتحدثت إلى نفسي بالمرآة وتساءلت عما إذا كنت فعلاً مجنونة.

بعدها راودني شعور كما لو أني محاصرة بكابوس ولا أحتاج أكثر من إعادة ثقتي بمشاعري الاعتيادية لاسيما ما يتعلق بالقلق الذي لازمني بعد أن تركت البيت متجهة للجامعة في حين أنني الآن أصبحت مصنفة بمريضة بالشيزوفرينيا وأتناول علاجاً إجبارياً ومحتجزة في جناح في مستشفى. وبالرغم من ذلك مازلت أشعر في داخلي بأني إنسانة طبيعية. وأدركت أنه عليّ أن أغادر المستشفى قبل أن أبدأ بالنظر إلى نفسي كمريضة عقلياً. وفي كل مرة تسألني المرضة عما إذا كنت أعتقد بأن هناك شيئاً ما غير صحيح بالنسبة لي فكنت أجيبها بكلا. وبدا واضحاً أن هذه الإجابة لا يرغبون سماعها. بعد ذلك قررت مع نفسي أن أجيب بكلمة نعم ولأرى ماذا سيترتب على ذلك. وفعلاً حالما بدأت أرضخ للعلاج وأتناول الدواء وأوافق على ما يخبرونني به، سمحوا لي في النهاية العودة إلى كليتي.

العودة إلى الجامعة

بعد ثلاثة أشهر في المستشفى عدت إلى الجامعة حيث كان هناك فرق كبير والطلاب بدوا أكثر إزعاجاً من الوقت الذي غادرت به. كما أنه ونتيجة للعلاج الذي أتناوله فقد ازداد وزني كثيراً فضلاً عن ارتعاشه دائمة ومشية متعثرة الخطى. وفي غضون أسبوع بعد عودتي تعرضت إلى مضايقات وبصق من الطلاب عندما كنت في طريقي إلى إحدى المحاضرات. وأسوأ المضايقات كانت بعد أن تعرضت ذات مرة لانتقادات من الموجه حيث انحنى أحد الطلاب نحوي وهمس في أذني قائلاً: إن ذلك سينهيك أيتها المريضة نفسياً. هرعت نحو غرفتي باكية ومكثت فيها خلال الأيام التالية وشعرت برغبة في الاختفاء من العالم.

وفي الوقت نفسه أصبح الصوت المهين والحاد أكثر رعباً وأخبرني بأن الوسيلة الأحسن لأكون أفضل حالاً أن أقبل إتباع توجيهاته التي من بينها ليس فقط إلحاق الأذى بالنفس بل قص شعري كاملاً وهددني بعقوبة مروعة كأن تكون حرق غرفتي فيما لو رفضت. ولأنني أتوق لشيء من الهدوء بدأت بالمثول إلى توجيهاته الغريبة وأخذ الحديث في الجامعة بشأني يتردد كثيراً بين الطلبة، فمنهم من يقول إنني أتصرف بغرابة وأتحدث إلى أناس أتخيلهم وأجرح ذراعي وغيرها من الأحاديث. وخلال مروري ذات ليلة في بار الطلبة اقترح الطلبة عليّ أن أطفئ عقب السيجارة على ذراعي، وعندما فعلت ذلك أخذوا يتصايحون عندها شعرت بالإحباط وبالتشويش ولم أعد أكترث سواء مت أم بقيت حية.

وفي الموعد التالي مع الأخصائية أخبرتها بأن علاجي قد جعل الصوت أكثر سوءاً وسألتها عما إذا أستطيع أن أوقفه لكنها أصرت على استمراري في تناوله وعندما أخبرتها بأن شعوراً بالانتحار ينتابني نتيجة للمضايقات

التي أتعرض لها في الجامعة أرسلتني من جديد للمستشفى لسبعة أسابيع أخرى.

الكفاح من أجل الحياة

وفي الأشهر الأربعة التالية كافحت على صعيد الجامعة إضافة إلى دخولي لمرتين للمستشفى خلال فترات قصيرة. ومع مرور الوقت حلت العطلة الصيفية وعرفت بأنه لا أستطيع أن أواصل القتال على مسارين أولهما وحشية الطلبة وثانيهما الأصوات، لذا عدت إلى عائلتي وكانت ثقتي بنفسي محطمة تماماً. وهنا كان والداي رائعين وداعمين لي حقيقة لكنهما مرتبكان لخلو عائلتنا من الأمراض النفسية.

وفي غضون الأشهر التي تلت تمت إحالتي إلى الخدمات النفسية المحلية في برادفورد. وكان موعدي الأول مع طبيب نفسي اسمه بات براكن كان قد عمل مع رجال ونساء تعرضوا للاغتصاب وللتعذيب في أوغندا والجنود الأطفال في سيراليون وليبيريا. وعندما سألني لماذا جئت إليه؟ أجبته بأن عمري 18 سنة ومصابة بالشيزوفرينيا الجنونية. وفي الحقيقة فاجأني الدكتور برده من أنه يعتقد أن وقع كلماتي كان الأكثر حزناً التي يسمعها في حياته من فتاة شابة. وبدأ طوال الوقت يصغي إليّ ويسألني بالتالي: أخبريني كيف أساعدك؟

في البداية طلبت منه أن يقلل العلاج وما أثار دهشتي أنه وافق على ذلك فوراً. بعد ذلك تحدثنا عن الأصوات واقترح عليّ أن أتوقف عن اعتبارهم كأعراض لمرض عقلي وأن أبدأ أنظر إليهم كوسيلة لاكتشاف نفسي. وقد ساعدني ذلك كثيراً في أن أخبره بتفاصيل تجربتي ـ التي عشتها في البداية ـ مع الصوت الأنثوي.

وقبل ذلك الوقت كان كل من يعالجني ينظر إليّ كما لو أني كنت شخصية غير سوية غير أن الدكتور "بات" أظهر تعاوناً واضحاً من أجل أن أتحسن. وخلال الأشهر السبعة التي تلت كنت أذهب للطبيب لجلسات أسبوعية منتظمة لأقلل من كمية العلاج إلى أن أوقفت تناوله تماماً.

وخلال هذا الوقت اكتشفت أنه إذا تعاملت مع هذه الأصوات تصبح أقل تكراراً كما تعلمت أن أكون أكثر تحدياً للأصوات التهديدية وأن أرفض ما تخبرني به. وبدأت أتشجع وأقول لنفسي إنها ليست سوى صدى وانعكاس عن غضبي المتشظي. وبدأت الأصوات تختفي تدريجياً وأصبحت لا أسمعها إلا مصادفة. وبعد مرور ثلاث سنوات أشعر أني متعافية وسعيدة ومستقرة تماماً. والحقيقة إن الشيزوفرينيا تصنيف مرعب والتضليل الذي يطلق على أناس غير مصابين به هو الأصعب. ومع أن الأطباء يصرون في حينها على أني كنت مصابة بالشيزوفرينيا إلا أني مازلت لا أعرف ما إذا كان ينطبق ذلك الوصف عليّ حقاً؟ وأعتقد كما هو حال معظم الشباب الذين يتركون المنزل أو الوطن لأول مرة في حياتهم أني كنت تحت تأثير ضغط كبير وغير سعيدة.

وربما أن الذهاب إلى الجامعة وغياب الدعم هناك قد دفعني إلى حافة الجنون. وكل الذي فعلته من قبل كان هو سماعي للأصوات والآن تعلمت كيف أتعامل مع هذه الأصوات.

وفي الوقت الحالي أحضر لشهادة الدكتوراه في علم النفس الإكلينيكي إضافة إلى عملي مع فريق طبي يساعد المراهقين الذين يعانون من بداية ذهان مفاجئ ومازلت أتساءل مراراً عما سيحدث لي فيما لو لم أعثر على طبيب نفسي عرف كيف يعالجني؟ أما إذا سمعت الأصوات الآن فلم أعد أشعر بالخوف لأني أفهم لماذا تتحدث لي.

امرأة من ذاكرة

لا يمكن للسيدة جيل برايس بأي حال وتحت أي ظرف أن تنسى مكان مفاتيحها حتى لو كانت في أوج الانشغال والانهماك في أمور الحياة الأخرى. ورغم أن الشائع أن معظم البشر حين تعصف بهم مشاغل الحياة يبدأون بنسيان أشياء كثيرة وتفاصيل صغيرة وكبيرة لكن جيل برايس قضية مختلفة تماماً فهي لا تستطيع نسيان أي شيء سواء كان مفاتيح أو موبايل أو جهاز التحكم عن بعد. كما أنها لا تنسى تواريخ أعياد ميلاد أقربائها أو أصدقائها ولا تنسى أي شيء حتى مع تقادم الأيام. وتستطيع جيل تذكر أي عرض أو مسلسل تلفزيوني شاهدته في وقت سابق وتستذكر التفاصيل الدقيقة لأحداث وقعت في سنوات طفولتها المبكرة.

وفي الحقيقة إن جيل برايس التي في عقدها الرابع والتي تعمل كإدارية في إحدى المدارس، تعيش حالة فريدة من نوعها بحيث أصبحت منذ

ثماني سنوات محط بحث ودراسة من قبل عدد من العلماء الذين يحاولون فك طلاسم تلك الحالة النادرة المتمثلة بامتلاك جيل لذاكرة فولاذية لا يمكنها نسيان أو تغافل أي أحداث عاشتها أو مرت في حياتها، بل إنها تستطيع أن تسرد تفاصيل كل يوم من حياتها.

ومع ذلك فإن هذه الحالة الغريبة والاستثنائية كانت أشبه بالهدية التي تلاقفها العلماء الذين رأوا أن في داخل دماغها أملاً للإنسانية ويعتقدون أنها ستساعدهم على معالجة مرضى الزهايمر من خلال تحسين ذاكرة الملايين ممن يعانون من هذا المرض. ويرى الكثيرون من أهل الاختصاص أن الحلم قد يتحول إلى حقيقة حيث يصبح لدى كل شخص القدرة على تذكر كل لحظة من اليوم الأول في الحياة المدرسية إلى أول صديق تقابله أو ليلة الزفاف أو عيد الميلاد. في حين أن جيل برايس تعاني الأمرين من تلك الذاكرة التي لا تخطىء بل إنها أصبحت أشبه باللعنة عليها حيث تقول: إنها عبء كبير لأني أتذكر كل أخطائي التي ارتكبتها وأتذكر كل قرار اتخذته وجعلني أندم كثيراً وأتذكر كل موقف فيه إهانة لي بحيث إن معاناتي مركبة فوق العادة وتجعلني أصل إلى حافة الانهيار.

فعلى سبيل المثال إن موت زوجها المفاجىء وهو في سن الثانية والأربعين لا يفارق ذاكرتها أبداً وتتذكر مأساته لحظة بلحظة بحيث تشعر بالألم في كل دقائقه ولا تستطيع أن تتجنبه بعكس الناس الذين أنعم الله عليهم بنعمة النسيان. ومهما حاولت أن تبتعد بتفكيرها عن هكذا مواقف تجد نفسها قد عادت من جديد بحيث تشعر إنها عاجزة عن فعل شيء حيال ذلك.

وتقول برايس التي يملأ الحزن عينيها: لا أجد أية وسيلة أو منفذ لأهرب من تكرارية مشهد ذلك اليوم الذي انهار فيه زوجي وتوفي حيث

أدى ذلك إلى ولادة كتاب جديد نشر مؤخراً في أمريكا وحمل عنوان «المرأة التي لا تستطيع النسيان». وتتذكر برايس ليلة زفافها وبأدق التفاصيل كما لا تبارحها أيضاً مآسي حياتها التي تبدو وكأنها تحاصر عقلها بل جعلتها امرأة مكتئبة. وتقول برايس: تخيل أن شخصاً يستذكر تفاصيل زواجه الدقيقة والتي لا يمكن تذكرها بسهولة. كما أنها على سبيل المثال تتذكر الشجارات مع الأصدقاء أو الأقارب، ولا تنسى كل حالة إحباط سببها شخص آخر وظلت حالة الإحباط هذه ملازمة لها. كما أنها تتذكر كل كلمة قاسية سمعتها أو قالتها لشخص. وتتساءل جيل: تخيل أنك لا تستطيع النسيان أو التخلص من هذه الهموم المتراكمة وتبقى حبيسة عقلك؟! وتضيف برايس إن النوم الاعتيادي يجافيها لأن الذكريات تهاجمها في كل وقت، بل إنها ـ أي الذكريات ـ تشل حياتها بأكملها. وتضيف: ربما أن الكثير من الناس يسمون ذلك هدية أو نعمة لكني أعتبرها عبئاً غير اعتيادي يستنزف حياتي ويخترق دماغي كل لحظة بل إن الأمر قد يقودني إلى الجنون لأنني أقلب في رأسي التفاصيل الكاملة لفيلم حياتي اليومية.

وبعيداً عن إجراءات جراحة في الفصوص الجبهية للمخ لا يوجد هناك ما يفعله أي شخص لكي يخفف عني حمل ما أعاني منه. وبالنسبة لمعظم الناس فإن الذكريات السيئة تضمحل وتتلاشى تدريجياً لكن ذلك لا يحدث مع برايس التي تقول بثقة الكاره للشيء: لن أنسى شيئاً. فعلى سبيل المثال تتذكر صديقها الأول وكيف أنها هجرته، وتتذكر حتى كيف دلقت البيض عندما كانت ذات يوم مع والدتها في كافتيريا في لوس أنجلس.

ومع ذلك في حالة أخرى ستحصل برايس على لقب مثير وهو امتلاكها مخاً لا يملكه الآخرون في عموم أوروبا وذلك من خلال تلك الذاكرة العملاقة حيث أطلق عليها لقب الروزنامة البشرية.

وبمجرد إعطاء أي تاريخ بإمكان برايس أن تتذكر كل أنواع التفاصيل وكل ما حدث معها في ذلك التاريخ وما حدث في العالم ومن كان معها وكيف كان الطقس يومها. وجميع هذه الاستذكارات يمكن أن يتم توثيقها فيما بعد من خلال يوميات تحتفظ بها منذ سن الرابعة عشرة.

فعلى سبيل المثال عندما تسأل عن (16) أغسطس **1977** تجيبك: كان يوم ثلاثاء توفي فيه الفنان ألفس بريسلي، وماذا عن **18** مايو **1980**؟ انفجار بركان ماونت سينت هيلنز. وعندما تسأل عن تاريخ وفاة الأميرة ديانا أو اندلاع حرب الخليج أو أي من الأحداث الأخرى تجدها تجيب بدون أي تأخير وتعطي التواريخ كاملة.

ولكن تلك النعمة التي تستشعرها برايس هي اللعنة التي تعاني منها لأنها تحمل مواقف وذكريات وأحداثاً عامة وخاصة على نحو متواصل ومن دون أن تسيطر على ذلك. ويكون هذا التدفق بشكل تلقائي وباستمرار أشبه بالهجوم الذي يسيطر على أية فكرة في رأسها.

وتوضح برايس: أرى أن الحياة اليومية أشبه بالشاشة المقسمة وأستعيد أكثر من عشر مرات يومياً شريط الأحداث والذكريات وعلى نحو تفصيلي لأمور وقعت في الماضي.

ويبدو أن عملها كإدارية في مدرسة قد أضاف إليها المزيد من الأعباء فتقول برايس: خلال عملي أشاهد الكثير من تواريخ أعياد الميلاد فعلى سبيل المثال عندما أدون معلومات عن طالب ما كأن يكون مثلاً من مواليد **11** أبريل **1995** تجدني تلقائياً سأشاهد هذا اليوم في مخيلتي كما لو أن أحدهم يضع شريط فيديو حيث إن مجرد ذكر اليوم سيفتح أمامي صفحة وسأعرف هذا اليوم هو الثلاثاء ومن ثم تتسلسل الأحداث فأتذكر كل شيء فعلته به. ويتكرر ذلك يومياً ملايين المرات وحتى عندما أكون منكبة ومنهمكة في عملي.

وقد جعلتها حالة الاضطراب التي تعيشها تسعى للحصول على المساعدة ففي عام 2000 اتصلت برايس بعالم في مجال الأعصاب مشهور أيضاً كباحث في الذاكرة يدعى جيم ماكجوف وهو من جامعة كاليفورنيا. ويوضح ماكجوف: يبدو أن ذاكرة برايس من النوع المتدفق ولا تستطيع أن توقف وتسيطر على هذا التدفق. كما أنها في وضع الشخص المجبر على استذكار الأشياء التي لا ترغب في أن تفكر بها. وبالتأكيد إن العلماء والباحثين سيحاولون أن يجدوا اسماً علمياً لوصف حالتها، وربما أن التوصيف الأدق لحالتها هي «متلازمة الإفراط بالتذكر». ويعني ذلك أن هناك حالة تذكر للأشياء أكثر من الحالة الاعتيادية والطبيعية.

لقد وجد الباحثون أن دماغها يستذكر الأحداث والذكريات بأساليب تختلف عن معظم البشر لكنهم حتى الآن لم يعرفوا ما هو السبب في ذلك. ويقول ماكجوف: حتى عمليات المسح التي أجريت على الدماغ لم تعط أي سبب واضح لذلك على الرغم من وجود بعض الخصائص التركيبية غير الاعتيادية في دماغها، كما أنه يبدو أكبر من الأدمغة الاعتيادية. ومع ذلك فإن الباحثين لا يعكفون فقط على دراسة لماذا برايس تتذكر أكثر التفاصيل وإنما - وهو الشيء الأكثر أهمية - لماذا لا تستطيع نسيان الأشياء؟.

وتقول برايس: يأمل العلماء أن تقود البحوث التي تجري على دماغي إلى اكتشافات علمية جديدة تساعد مرضى الزهايمر والأشخاص الذين يعانون من اضطرابات بسبب الضغوط النفسية التي تعرضوا لها وغيرهم ممن يشكون من تذكر أمور كارثية حدثت لهم.

وتضيف برايس: إن العلماء في جامعة هارفارد يرغبون في دراسة حالتي حتى وقت متأخر من حياتي وأنا سعيدة بذلك. وبالرغم من أن هذا الأمر قد يكون تجربة عذاب أخرى لكن يحدوني الأمل من أن تؤدي

عملية دراسة حالتي إلى مساعدة أناس آخرين. وتوضح برايس قائلة: إن الجزء الأقسى هو أني لا أستطيع أن أعطي نفسي فسحة لترتاح إذ أنني مواظبة على الدوام على استرجاع القرارات الخاطئة في رأسي. فعلى سبيل المثال لا أستطيع أن أفكر بالزواج مرة ثانية لأن ألم فقداني زوجي وحزني عليه ما زال يؤذيني رغم مرور ثلاث سنوات على وفاته.

ومع أن العلم له رأي في حالتها إلا أن برايس تضع نظريتها الخاصة عن قدراتها المدهشة في التذكر حيث تعزو ذلك إلى الإنتقالة الكبيرة إلى كاليفورنيا وتقول برايس: إن انتقالنا من الساحل الشرقي إلى الساحل الغربي في طفولتي كان صدمة قوية لي، لقد بذلت قصارى جهدي لكي أوقف انهمار الأشياء التي حدثت قبل الانتقال. وهنا أستطيع أن أسجل أنه من بعد الانتقال بدأت باستذكار الأشياء وتذكر أيام محدودة. وكانت برايس أشبه بكاتب اليوميات الذي يدون كل ما يمر عليه إجبارياً وتعترف بأنه دائماً ما يكون النظام والترتيب أمراً ملحاً بالنسبة لها. وفي بعض الأحيان تشبه نفسها بالمستودع فهي تحتفظ بأشياء تذكارية كثيرة بل مئات الدمى وتحتفظ ببعض الدمى وملابس متنوعة منذ أن كان عمرها (5) سنوات.

ويقول العالم ماكجوف: إن جيل برايس شخصية فعالة تقوم بواجباتها على أكمل وجه وفي داخل عقلها نشاط غير اعتيادي وخلف المأساة التي تعيشها برايس وتحديداً داخل عقلها يمكن أن نعثر على أمل للإنسانية جمعاء.

أما لاري كاهيل أحد العلماء الذين يدرسون حالة برايس في جامعة كاليفورنيا في ابرفاين فيقول: إن الحالة نجمت عن الاستثارة للعرض الجانبي نحو التطور المحتمل الأكبر في نطاق الدماغ والذاكرة. لذا فإن الفرصة نحو تعزيز وظيفة الدماغ البشري واحتمال البحث في الأسباب

التي يعاني منها مرضى الزهايمر من الممكن أن تكمن في داخل جمجمة برايس.

«إنه لأمر مؤلم حقاً» هذا ما لخصته برايس التي استخدمت كحالة مضادة للاكتئاب عندما أصبحت ذاكرتها متدفقة بل تغمر دقائق حياتها. وتضيف: لقد سمعت أن الذاكرة الاعتيادية مشوشة قليلاً وأنا لا أرغب في ذلك وعليّ أن أقول الحقيقة إنني أكره فكرة النسيان. وفي الحقيقة إن فكرة نسياني لبعض من ذكرياتي أو لاستذكاري بعض الأيام والتواريخ تؤرقني وتجعلني أشعر بالقلق.

ويثق الأصدقاء ببرايس وفي قدرتها على تذكر الأشياء التي يكونون فيها معاً وفي نفس المكان وتعترف برايس قائلة: أحب أن أرى في عيونهم علامات الدهشة والتعجب عندما أذكرهم بأشياء وقعت لنا ويكونون قد نسوها. لكن يبقى التاريخ الذي يغمر دماغها ويستحوذ على ذاكرتها هو ذلك اليوم الذي توفي به زوجها الميكانيكي جيم وذلك في عام **2005** عندما تفاقمت عليه حالة السكري التي كان يعاني منها. وتقول برايس: بالنسبة لهذا اليوم ـ يوم وفاة زوجها ـ أعود بذاكرتي إلى المستشفى حيث أراه يقف عند طاولته أو يرقد في سريره. لقد تزوجته برايس عندما كانت في السابعة والثلاثين من العمر بعد أن عانت من حالات إجهاض، وبعد عدة سنوات من الزواج انتهى بها الأمر إلى أن تشاهده وهو يموت أمام عينيها.

وفي بعض الأحيان تجنح برايس إلى المحاولة للتخفيف عن نفسها بتذكر أيام سعيدة. وتقول برايس كما أشعر بالراحة لأنني أعرف قدرتي على تذكر كل شيء عنه، لذلك أتذكر كل الأيام الجميلة التي عشتها معه، كما أسعد لأني سأبقى أتذكره فعلاً ـ وليس قولاً ـ ما حييت.

ستة عشر عاماً من الاختفاء

فايكي هاملتون مراهقة بعمر الورد شاء القدر أن تكون في المكان غير المناسب ليخطفها وحش بشري ويغيبها عن محبيها سنوات طويلة. لقد ترك اختفاء المراهقة فايكي هاملتون حالة من الصدمة في عموم المملكة المتحدة بسبب الغموض الذي أحاط بهذه الجريمة وملابساتها. وقد استنزفت القضية جهداً غير عادي من رجال المباحث من أجل اقتفاء أثر الطالبة التي كانت تعرف بأنها ملتزمة وغير طائشة ومن اللواتي يهتممن كثيراً بدراستهن.

وبعد مرور زمن طويل على هذا الاختفاء القسري تم اكتشاف التفاصيل الدقيقة للقضية التي حَيرَت الشرطة البريطانية لتنبري الأخت الكبرى (شارون هاملتون) ـ التي جعلت من اختفاء شقيقتها الهاجس الذي استحوذ على كل دوافعها ـ وتتصدى بتأليف كتاب كامل عن المحنة والمعاناة الرهيبة التي عاشها جميع أفراد العائلة. لقد باحت شارون عبر

هذا الكتاب بمكنوناتها وخوالجها التي ظلت حبيسة طوال فترة الاختفاء والتي كانت كابوساً مزعجاً للجميع. وقبل أن تسرد محنة الاختفاء وكيف كانت تشعر خلال ذلك تشير شارون إلى الدوافع التي جعلتها تؤلف كتاباً عن أختها قائلة: إن مأساتنا كعائلة تستحق أن يقرأها الناس ليعرفوا أن المجرم لابد أن يسقط في يد العدالة وإن طال الزمن.

ووفقاً لحسابات الزمن الذي بدا أنه فعل فعله في مداواة بعض مما سببه هذا الفقدان المرير فإنه قد مرت تقريباً ثمانية عشر عاماً على آخر مرة التقت بها الأخت الكبرى «شارون» - التي هي أم لطفلين - أختها الضحية. لقد كانت تلك الفتاة المراهقة فايكي - في سن الخامسة عشرة وقت وقوع حادثة الخطف. وحسب التقديرات الأولية لرجال الشرطة فإنها اختفت من محطة باص في منطقة باثغيت في اسكتلندا في فبراير **1991**، ومنذ ذلك التاريخ أصبح اختفاؤها، أحد أطول حوادث الاختفاء التي تشهدها المملكة المتحدة وربما العالم أيضاً. وقد تسببت الحادثة بمتابعة شرسة من قبل السلطات الأمنية في بريطانيا التي لم تستطع أن تتوصل فيها إلى شيء، إلى أن قال الجاني كلمته وأعترف بجريمته النكراء وذلك بعد أن تمت إدانته بارتكاب جريمة أخرى.

طوال سبع عشرة سنة قاسيات من البحث ظلت شارون هاملتون لا تملك أدنى فكرة عن مصير أختها، ولكن قبل النهاية تم العثور على جثة المراهقة فايكي، وفي ديسمبر من العام الماضي أصدرت المحكمة حكمها بحق الجاني بيتر توبن ليسجن مدى الحياة. وشكل الحكم الصادر بحق القاتل بالنسبة للأخت الكبرى «شارون» نهاية فترة عصيبة عاشتها وفي الحقيقة نهاية كابوس مزعج وبداية فصل جديد. وتقول شارون إنها بعد أن أسدل الستار على فصول جحيمها أصبحت تشعر بأنها قادرة على الحديث وأصبحت قادرة على أن تنشر مشاعر الحزن التي لازمتها طوال

فترة الاختفاء التي وثقتها عبر كتابها الذي حمل عنوان «الأخذ: قصة الفجيعة الحقيقية لاختفاء شقيقتي».

المساء الأخير

ارتبطت كل من الشقيقة الكبرى شارون والصغرى فايكي بعلاقة صداقة قوية غير أن عرى العلاقة ازدادت قوة عندما واجهت الأختان ظروفاً عائلية صعبة، حيث إن والدهما هجر والدتهما بعد فترة قصيرة من إنجابها لتوأم بنات وارتبط بامرأة أخرى. وفي الوقت الذي اختفت فيه الأخت المراهقة كانت أمهما تستطيع أن تتعاطى مع الوضع العائلي الجديد أي بإمكانها العيش كمطلقة وإدارة كل شؤون البيت، فعلى سبيل المثال أنها لم تترك في يوم ما ابنتها تعود بمفردها من المدرسة. ومن جانبها فإن فايكي لم تغادر منزل العائلة دون رفقة أحد وعندما سافرت إلى مدينة لفنجستون لقضاء عطلة نهاية الأسبوع مع أختها شارون في شقتها الجديدة. قضت الشقيقتان وقتاً جميلاً وعاشتا الأجواء الحميمية حيث كانتا تخرجان سوية للتسوق ولمشاهدة الطبيعة الجميلة غير أن فايكي كانت عصبية وقلقة بسبب رحلة العودة إلى بيت العائلة في باثغيت.

كان مساء شتوياً من أحد مساءات شهر فبراير، حاولت شارون إقناع أختها فايكي للبقاء ليلة أخرى معها إلا أن الشابة أصرت على العودة إلى المنزل. لذلك كانت اللحظات الأخيرة بين الأختين مؤثرة بعض الشيء. أوصلت شارون فايكي إلى محطة الباص واحتضنتها بحميمية وودعتها ملوحة بيدها إلى أن انطلق الباص في وقت لم تدرك فيه الشقيقة الكبرى أن تلك ستكون المرة الأخيرة التي ترى فيها أختها، كما أنها لم تعِ أن حياتها ستأخذ مساراً آخر ولم تعد حياتها السابقة على الإطلاق.

وفاة الأم وسلبية الأب:

ولم تصل فايكي إلى البيت أبداً. واختفاؤها أصاب عائلتها في مقتل فبدا أن جميع أفرادها قد أصيبوا بصدمة لم يصحوا منها حتى بعد مرور وقت طويل. تقول شارون التي أصبح عمرها الآن 37 سنة وتعيش مع شريكها وطفليها في فالكرك: لقد كانت تلك السنون مروعة، بل إنها من القسوة على العائلة بحيث غاب الفرح نهائياً عنا.

وقد تأثرت الأم كثيراً بسبب فقدانها ابنتها وهو الأمر الذي أرادت أن تعوضه بانجرافها نحو الخمر الذي عاقرته معتقدة أنه منقذها لكنه كان سبباً رئيسياً في وفاتها. وتوقف كبد الأم عن العمل بعد سنتين وتوفيت وهي في الواحدة والأربعين لتترك طفليها التوأم من دون أم وهما لم يبلغا سن التاسعة. وتقول شارون: لم تستطع والدتي فراق ابنتها فتغيرت من الليلة التي اختفت بها فايكي علماً أن السبب ظل مجهولاً. وقد حاولت كثيراً أن تخرج من الأزمة لكن شدتها لم تتح لها أن تنجح في ذلك، ومن ثم تدهورت حالتها الصحية واتضح أنها تعاني من سرطان نفسي تسبب في قتلها بشكل بطيء. وتضيف شارون أدرك أن لوالدتي أخطاء لكنها كأي أم ماتت مكلومة ومكسورة القلب لأنها لم تر ابنتها ثانية. وبالنسبة للأخت الكبرى شارون التي كانت في سن الثانية والعشرين وقتذاك فقد عاشت حالة ذهول لاسيما أنها كانت الأقرب روحياً لأختها.

تقول شارون: لقد حاولت كثيراً من أجل أن أستعيد توازني بسبب هذا الفقدان الكبير لكني وقبل أن أخرج من محنتي الشخصية حوصرت من جديد بوفاة والدتي. وأدى ذلك إلى سحب البساط من تحت أقدامي، ما جعلني أترنح مرة ثانية ولم أعد أعرف كيف السبيل للمضي نحو الأمام في حياتي. وتكتب شارون في مذكراتها: لم يكن لدي الوقت الكافي

لكي أحزن بشكل يليق بالناس الذين فقدتهم لأنني توليت وقتها مهمة الاعتناء بالتوأم اللتين تركتهما والدتي. وتزعم أن والدها كان سلبياً ولم يقدم أي مساعدة لهم. وتقول: بصراحة كنت أعتقد أن فقدانه لابنته فايكي سيعيده إلينا ويجعله يفكر في أن يفعل أقصى ما يستطيع من أجل إعادة الجسور وردم الهوة مع الناس القريبين منه لكنه لم يلتفت إلى هذا الأمر على الإطلاق. وتقول شارون مع مرور السنين حاولت عدة مرات أن تعيد علاقتها بوالدها، كما أنها طلبت منه أن يرافقها في الاحتفال الذي أقيم لمناسبة زواجها لكنه لم يكن مهتما بالتواجد إلى جانبها، ولم يعر اهتماماً لطلباتها وتوسلاتها كأي بنت تحب أباها وإن كان قد هجر والدتها. وتعلق شارون: عندما أصبحت أماً ولي عائلتي لم أجد مبرراً لشخص تكون لديه أسرة وأبناء أن يتصرف بهذه الشكل من اللامبالاة، وأن يعامل أطفاله بهذه الطريقة من الجفاء.

إختفاء دون أثر

طوال سنوات الاختفاء، الذي كان يفتقر لأي دليل، لم تشهد حادثة فايكي أي تطور، وسجلت كقضية فقدان من دون معرفة الأسباب، وكنتيجة لذلك فإن حياة شارون ظلت معلقة ولم تعرف الاستقرار أبداً. وبين الحين والآخر كانت تخرج شائعات عن مشاهدة فايكي في مكان ما غير أنه لم يكن هناك ما يؤكد مثل هذه المزاعم. وعادة ما تؤدي هذه الشائعات إلى إعادة المشكلة إلى مربعها الأول في داخل لشارون التي كانت شقيقتها لم تغادره الإطلاق بل كانت ترى أنها قريبة من روحها، وتراها في الخيال في أحيان كثيرة. وبذلك تطفو على السطح آلاف الأسئلة التي لم تجد شارون أجوبة لها.

تضيف شارون: لقد كنت أتساءل عما إذا كان قد تم اختطافها من قبل جهات أجنبية؟ وكيف يمكن لشخص أن يختفي تماماً دون أن يترك أي أثر؟ وبالطبع إن حدسي كان يشير علي بأن شقيقتي قد تم قتلها لكني كنت أتمنى أن تخيب كل ظنوني. غير أني أعود إلى الواقع وأبدو مقتنعة فقط بمعرفة تفاصيل ما حدث لشقيقتي. واعتلجت في داخل شارون الكثير من الأسئلة منذ اختفاء شقيقتها في عام **1991** لكنها لم تجد أجوبة إلا في عام **2007** عندما أدين السفاح البارع بيتر توبن وسجن بتهمة قتل الطالبة البولندية أنجليكا كلوك في جلاسكو. ويبدو أن شارون تابعت قضية هذه الطالبة واستعادت الكثير من قضية شقيقتها وكانت ترى في وجه القاتل الكثير من الشر. وبعد فترة قصيرة من إصدار الحكم بحق المجرم بيتر توبن تفاجأت شارون بوجود الشرطة على بابها وقد أخبروها أن المجرم بيتر توبن كان يعيش في باثغيت عندما اختفت شقيقتها فايكي وأنه من قام بقتل أختها في الليلة التي اختفت فيها.

وتبين أن توبن هو من قام باغتصاب فايكي ومن ثم قتلها وقبل أن يدفنها قطع جسدها إلى أشلاء ليتمكن من حملها بسهولة ودفن جثتها تحت حفرة رملية في حديقة تبعد **400** ميل عن مدينة مارجيت في كينت. وبالرغم من مرور سنوات عديدة على شكوك شارون من أن فايكي قد ماتت إلا إنها كانت مأبونة بمعرفة مصير أختها وماذا حصل لها في ذلك اليوم المشؤوم الذي لم تنسه. تقول شارون إن حقيقة أنه قد تم العثور على بقايا جثة شقيقتي في الطرف الآخر من المدينة جعل القضية تأخذ بعداً أكثر سوءاً. كانت شارون تحتفظ بوصية أمها التي حملتها إياها قبل أن تموت، فقد طلبت منها أنه إذا تم العثور على جثة فايكي أن تقوم بنقلها لتدفنها إلى جوارها، غير أن تلك الرغبة اصطدمت بممانعة والدها الذي كان قد وضع خطة مختلفة. لقد اشترى الأب قطعة أرض في منطقة

أخرى ونقل الجثمان إلى هناك حيث أجريت مراسيم الدفن لتكون إلى جواره عندما يموت. وتقول شارون تحدثت إليه لكنه لم يكن يصغي وطلبت منه أن نلتقي قبل أن يتخذ مثل هذه الخطوة لكنه لم يكترث لأي من النداءات ونفذ ما كان قد خطط له.

وتستدرك شارون قائلة: بعد عدة سنوات من دفن فايكي وحدها كنت أدرك أنها ترغب في تنفيذ وصية والدتي التي أحبتها وماتت بسببها. لقد شكل ذلك هاجساً لازمني في حياتي، وفي الحقيقة صرت أشعر بأني أعيش بقلب مكسور.

الكتابة من أجل شقيقتها

وبالنسبة لشارون فإن المساء الذي شهد جنازة فايكي كان بمثابة نقطة تحول في حياتها لأنها أطلقت فيه وعدها من أنها ستؤلف كتاباً عن تجربتها المريرة التي عاشتها بسبب فقدانها أختها. وتؤكد أنها بدأت بكتابة ملاحظاتها عندما أخذ اسم القاتل «بيتر توبن» بالظهور في واجهة الأحداث. لقد بدأت الكلمات تتدفق من داخلي ووضعت كتابي في غضون أربعة أشهر من الكتابة المتواصلة بحيث إن سرعة يدي لم تستطع أن تجاري انثيالات أفكاري. لقد كان أفضل علاج ممكن بالنسبة لي.

وتقول شارون «في بعض الأحيان، كنت أتساءل عن القدر والصورة الأكبر في المأساة، غير أنني في النهاية أعترف أن الحياة في شقها الرئيسي كارثية والآخرة هي المكان الذي سنعيش فيه السعادة الحقيقية. وفوق كل شيء، لقد توصلت إلى أن فايكي كانت في المكان الخطأ وفي الوقت الخطأ».

وعندما بدأت بكتابة تجربتها عن اختفاء أختها فايكي شعرت شارون بالقلق من أنها ستقلب الجروح القديمة للأسرة لذلك كانت تتساءل عما

إذا كانت تفعل الشيء الصواب، لكنها في النهاية اتخذت قرارها لأن الكتاب سيتناول فجيعتها بشقيقتها المحبوبة. وتقول شارون «أردت أن أترك لها شيئاً أكثر من مجرد صورة لطالبة مدرسة مبتسمة للحياة. عندما تم العثور على جثة فايكي ذهبت لزيارة أحد الأطباء وقال لي أنني سأتلقى في قادم الأيام باقة من الزهور من أمي، إلا أنه لم يكن يشير إلى بالمعنى المادي لهذه الهدية وإنما بطريقة ما سيكون ذلك من خلال شخص آخر وبمناسبة ما. وبعد فترة ليس بالطويلة أرسل لي الناشر باقة كبيرة من الزهور ظلت معي غضة أكثر من أسبوعين. وقد منحني ذلك قدراً كبيراً من الراحة».

وتقول شارون إن عنوان الكتاب **TAKEN**، يلخص حياتها في كلمة واحدة. «إن القاتل توبن أخذ فايكي وأخذ والدتي وأخذ شبابي وكذلك أخذ والدي مني». وتضيف «إن السبعة عشر عاماً الماضية كانت مريرة ولكن حان الوقت للتحرك. لقد أعدت فايكي إلى مكانها وحصلت لها على العدالة. والآن أشعر بأنها من حولي، وإنها تقود بوصلتي. وأعتقد أنها تعيش بسلام، ونتيجة لذلك فإنني في سلام». وفي نهاية المطاف، وسواء كان الأمر سباحة أو غطساً فإني قد إخترت السباحة لأنها ما كانت تطلبه فايكي.

الجريمة الوحشية حسب التواريخ

> **11** فبراير **1991**: والدة فايكي جانيت هاملتون أفادت أن ابنتها البالغة من العمر **15** عاماً في عداد المفقودين وذلك بعد عدم عودتها من عطلة نهاية الأسبوع التي قضتها مع شقيقتها شارون.

> شوهدت فايكي للمرة الأخيرة على قيد الحياة عندما كانت تنتظر حافلة في باتجيت، غرب لوثيان.

< **21** فبراير **1991**: عثر على محفظة نقود فايكي في ساحة سانت أندروز، أدنبره. وشارك في عملية البحث أكثر من **50** ضابط شرطة في واحدة من أكبر التحقيقات عن المفقودين تشهدها اسكتلندا.

< **21** مارس **1991**: انتقل توبن من باتجيت إلى كنت في إطار خطة المجلس لتبادل المنزل.

< يناير **1993**: وفاة الأم جانيت هاملتون دون معرفة ما حدث لابنتها.

< **15** نوفمبر **2006**: المباشرة بتحقيق جديدة من قبل الشرطة في وفاة فايكي، على أمل أن التقدم في إجراء اختبارات الحمض النووي.

< **10** فبراير **2007**: شرطة لوثيان والحدود أطلقت نداءً جديداً للحصول على معلومات لمناسبة الذكرى الساسة عشرة لفقدان فايكي.

< **4** مايو **2007**: الحكم بالسجن على توبين لمدة لا تقل عن **21** عاما بعد إدانته باغتصاب وقتل الطالبة البولندية أنجيليكا كلوك. وكان عليه حكم سابق لاغتصاب فتاة أخرى في الرابعة عشرة من عمرها.

< **5** مايو **2007**: الشرطة تعلن خططاً لاستجواب توبن بشأن مقتل فايكي بسبب سكناه في باتجيت في الوقت الذي فقدت فيه.

< يونيو **2007**: المحققون يجرون تحرياً عن منزل توبن السابق في باتجيت.

< **21** يوليو **2007**: توجيه تهمة قتل فايكي رسمياً إلى توبن.

< نوفمبر **2007**: المحققون يجرون تحرياً على منزل توبن السابق في مارجيت.

وتم استعادة جثة فايكي من حفرة في الحديقة الخلفية.

< **15** نوفمبر **2007**: توبن أمام المحكمة بتهمة الخطف والاعتداء الجنسي والقتل.

- 30 نوفمبر **2007**: يحضر مئات من المشيعين في جنازة فايكي.
- 3 نوفمبر **2008**: تبدأ محاكمة توبن في المحكمة العليا في دندي.
- 2 ديسمبر **2008**: إصدار عقوبة السجن بما لا يقل عن 30 سنة بعد أن وجدت هيئة محلفين أن توبن مدان بخطف واغتصاب وقتل فيكي.

بساط الريح إلى بغداد

«في مطلع أبريل من عام 2003، وتحديداً بعد أيام قلائل من الغزو الأميركي البريطاني على العراق كنت برفقة زوجي المصور ستيفن أقوم بنقل تقاريري الصحفية عن الحرب إلى صحيفتي الصاندي تايمز، في ذلك الوقت دار في خاطري سؤال مفاده هو هل هناك من يعرف في مكتب الصحيفة في لندن ماذا يعني أن تسير في شوارع بغداد التي تشهد فلتاناً أمنياً وسلباً ونهباً يفوق حدود التصور؟».

في تلك اللحظة لم تكن «هالة جابر» تعرف أنها ستعيش فصول تلك القصة الإنسانية المؤثرة التي سردتها عبر كتاب كامل. ففي غفلة من الزمن والأحداث المريرة التي تعصف بهذا البلد المستنزف وجدت هالة نفسها مسؤولة عن طفلتين عراقيتين بعمر الورد يتيمتين وفرض عليها أن تكافح من أجلهما.

وتقول السيرة الذاتية لـ «هالة جابر»، إنها صحفية لبنانية متزوجة من مصور بريطاني، تعلمت أبجديات مهنتها حينما كانت على الخطوط الأمامية في الحرب الأهلية في بيروت. ألفت أول كتاب عن حزب الله وحصل على عدة جوائز، من بينها جائزة الصحافة البريطانية كأفضل مراسل أجنبي، لمرتين، (في عامي 2005 و 2006) حيث كانت تعمل لصالح صحيفة الصنداي تايمز.

و«هالة جابر» امرأة ذكية، وقوية وناجحة شقت طريقها في مهنة المتاعب بنجاح يحسدها عليه الآخرون، وعملت في أكثر مناطق العنف في الشرق الأوسط وأرسلت تقارير سجلت فيها حضوراً قل نظيره. ولم تكتف «هالة جابر» بكل ما حققته فأصدرت كتاباً جديداً حمل عنوان «بساط الريح إلى بغداد» ذهبت به إلى ما وراء العناوين لتسرد فيه صفحة من صفحات حياتها، فهو قصة هالة شخصياً التي اعتقدت في البداية أنها ستأتي على تسوية مع الحزن الساكن فيها بسبب عدم قدرتها على الإنجاب، لكنها في الحقيقة وجدت نفسها غارقة بانفعالات الأم وذلك عندما أصبحت في لحظة من الزمن بمواجهة ما كان ينبغي أن تكون مجرد قصة إخبارية خلال غزو العراق في عام 2003 لكنها وجدت نفسها أمام قصة سيكون لها مسار مختلف في حياتها.

رأت هالة الطفلة زهراء التي تبلغ الثالثة من العمر فوق سرير قذر في مستشفى في بغداد حيث أحرقتها القذيفة التي اصطادت سيارة أسرتها لدى هروبها اليائس من القصف الأميركي، حيث قتل معظم أفراد عائلتها عداها وأختها حوراء. وكانت الحروق البالغة في الجسم الطري لزهراء قد هزت عواطف هالة بقوة تجاوزت حدود المهنة الصحفية إلى الارتباط الإنساني إذ لم تستطع أن تحافظ على تلك المسافة الفاصلة بين العمل المهني والمشاعر الإنسانية. لقد تركت حالة الطفلة الصغيرة والغضة التي

غطت جسمها الضمادات أثراً كبيراً في داخل الصحفية هالة التي في الحقيقة ظلت تتوق للحظة التي ترى نفسها وهي تلد ابنتها التي من صلبها. وباندفاع لم تعرف كنهه في بداية الأمر تعهدت هالة جابر بأنها ستبذل كل ما في وسعها لمساعدة زهراء مع العلم أن ما تحتاجه لإنقاذ حياتها كان أشبه بالمعجزة بالنسبة لجدة زهراء، التي كانت تجلس إلى جنب سريرها، وكانت تصلي من أجل أن تفي تلك المرأة الأجنبية بوعد إنقاذ حياة حفيدتها.

وتتميز هالة بسعيها الدؤوب واجتهادها لأداء مهمتها لذلك كانت في بداية الأمر متفائلة. والمعروف أنه إثر سقوط بغداد شهدت البلاد في تلك الفترة عمليات نهب وسلب وإطلاق النار بسبب انهيار الحكومة وغياب تام لكل الخدمات، غير أن هذا لم يَحُل دون أن تندفع هالة لتتوسل الأطباء ليفعلوا شيئاً من أجل زهراء. لكنها أخيراً وجدت ضالتها في مارلا روزيكا التي كانت بحق «ملاك الرحمة»، وهي فتاة أميركية شابة شقراء في العشرينيات من عمرها، كانت تطلق على نفسها اسم المرأة التي تنتقم من أجل الإنسانية، وقد جاءت إلى بغداد قادمة من أفغانستان ضمن بعثة شكلتها بنفسها للحصول على تعويض للمدنيين الذين أصيبوا من جراء الحرب. وقد نجحت روزيكا في نقل زهراء إلى مستشفى ميداني أميركي.

وعلى صعيد التفاعل مع الأحداث على الأرض تأثرت هالة بشدة لمحنة المدنيين العراقيين الذين قتلوا وجرحوا خلال الغزو. وتقول هالة «إن موضوعية التقارير كانت جميعها تسير على نحو جيد» ولكن أن تكتب عن حالات إنسانية مؤثرة فذلك قد لا يكون أمراً عادياً بأي حال». وبدعم من زوجها ستيفن الذي يرافقها في رحلة العمل والإنقاذ تدرك هالة أن فكرة إنقاذ روحين على الأقل قد استحوذت على تفكيرها، وكان اهتمامها ينصب على زهراء وشقيقتها الرضيعة حوراء، الناجيتين

الوحيدتين من عائلتهما عندما كانوا يحاولون الفرار من القصف الجوي أثناء عملية الصدمة والترويع. وكانت هالة قد سألت جدة زهراء مبدئياً عما إذا كانت لا تمانع في السماح لها بتبني الطفلتين وجاءتها الموافقة بنعم.

في العراق تم الخلط تقريبا بين جميع الذين جاءوا من الخارج سواء جاءوا لإعادة البناء، أو للمساعدة من أجل إرسال تقارير صحفية عن الدمار الذي تشهده البلاد في أعقاب الغزو الأميركي حيث أصبحوا مستهدفين. وقصة هالة لم تختلف كثيراً عن هؤلاء جميعاً. وبالرغم مما بذلته «هالة» من جهود وكذلك تلك التي بذلها الجراحون الأخصائيون من الجيش الأميركي، استسلمت زهراء لإصاباتها وتوفيت في المستشفى الميداني الأميركي. وكذلك بعد عامين، قتلت الشابة مارلا روزيكا في هجوم بتفجير انتحاري فيما فَقَدَت هالة أثر الجدة وحوراء وراء الجدران الطائفية والحرب الأهلية.

في الواقع إن قصة هالة جابر أصبحت وصفاً لعملية بحث طويلة وفترة نقاهة للتخلص من عقدة الذنب والإستغفار. وعلى مدى السنوات التالية عادت هالة إلى العراق، وأجرت مقابلات مع المسلحين، وأرسلت تقارير من الفلوجة المحاصرة، ووثقت التكلفة البشرية الجسيمة والباهظة لعمليات الخطف والاغتيال والقتل والتهجير القسري التي يتعرض لها العراقيون، مدركة أنها تدفع نفسها نحو آفاق أخرى حيث تقول هالة «إن المهام الأصعب تُصبح الأسهل بالنسبة لي عندما أجد أنها تعيش معي».

وفي المحصلة، إن المحنة والصدمة النفسية والشعور بالذنب كانت تستحوذ على كامل أحاسيسها بسبب الوعد الذي أطلقته لإنقاذ حياة زهراء والتي كانت تأتيها حتى في منامها. وانزلق العراق نحو أعمال

العنف الطائفي التي اندلعت، وفقدت هالة جابر الاتصال بالجدة وحوراء. ولازمها هاجس الخوف من أنهم سيلقون اللوم عليها ويتهمونها بأنها تخلت عنهم. إن المشاعر الصادقة وقصة رحلتها الشخصية توضح تعقيدات تلك المسؤولية التي تحملتها من جراء الحرب في العراق وضحايا هذه الحرب. كما أن الجانب الظاهري لهذه العملية، بالنسبة لهالة جابر وما تقدمه من تقارير وكذلك بالنسبة للعديد من حلفائها في المنطقة الخضراء، كانت تكمن في إعادة إعمار العراق ومساعدة شعبه. غير أن هذه الجهود قد غرقت في مستنقع العنف وإطلاق النار المتبادل الذي كان يتبدى في كل مكان.

كانت «هالة جابر» أول صحفية تناولت قصة الطفل علي ذي الإثني عشر عاماً الذي فقد ذراعيه ومعظم أفراد عائلته في القصف الجوي خلال بداية الغزو الأميركي، والذي تم نقله جواً إلى بريطانيا، وكتبت له حياة جديدة، وقد أصبح فيما بعد ملصقاً تعبيرياً عن الضحايا المدنيين الذين سقطوا بسبب الحرب. وبعد عدة سنوات، تلتقيه هالة جابر من جديد، حيث كان شابا في السادسة عشرة. وقد أعرب عن امتنانه لتلقيه التعليم البريطاني حينما كان يتعالج هناك. ولكن علي الآن في بغداد، حيث يقوم بزيارة إلى الوطن لأن بريطانيا لن تمنح تأشيرة دخول لعمه، وهو لا يستطيع تدبير أموره بدونه.

وحصلت هالة جابر على جرعة كبيرة من الإلهام بسبب التفاؤل الذي كان يبوح به علي حينما كان يتحدث عن انقطاعه عن الدراسة حيث يخبرها قائلاً: «هناك على الأرجح آلاف الأطفال مثلي، ربما أن البعض إصاباتهم وإعاقاتهم أسوأ من حالتي، لكنهم لم يكونوا محظوظين مثلي، ولم يحصلوا على نفس فرص الحياة التي مُنحَت لي. فَمَنْ لهؤلاء الناس؟

لذا أرى أن علينا أن نفعل شيئاً ما. وأعتقد أنني يجب أن أقدم المساعدة على نحو ما».

إن «بساط الريح إلى بغداد» قصة وجدانية مؤثرة من النوع الذي يمتلىء بمشاهدات تدمي القلوب حيث نتأمل تلك الصور عن التهجير القسري وإعادة لم الشمل. ويعترف شخص قرأ الكتاب قائلاً: لم أتركه إلى أن أكملته في جلسة واحدة وبكيت أكثر من مرة أثناء القراءة.

في النهاية، إن هالة جابر لم تستطع أن تتخلص من عقدة الذنب والهواجس لذلك بحثت عن الجدة وحوراء «شقيقة زهراء» إلى أن عثرت عليهما، لكنها هذه المرة تدرك بأنه لا وجود لحل سريع، حيث أخذت تقاوم إطلاق الوعود لأنها تخشى ألا تستطيع الإيفاء بها. وفي النهاية تلتقي هالة من جديد بالجدة وحوراء ويكون هناك عناق بينهما حيث تبكي تلك الصحفية ومشاعر الأمومة تطغى عليها. وربما أن لسان حالها يقول في تلك اللحظة: أدرك تماماً من أنني أحب حوراء وعزائي الوحيد هو أني لا أرغب في أن أتخلى عنها أبداً.

الفهرس

المترجم

عبدالكريم قاسم حرب (كريم المالكي):

كاتب ومترجم وصحفي ـ جريدة الراية القطرية.

بكالوريوس أدب إنجليزي، كلية الآداب، جامعة البصرة، العراق.

عضو جمعية المترجمين العراقيين.

عضو اتحاد المترجمين العرب.

عضو الاتحاد الدولي للمترجمين.

عضو نقابة الصحفيين العراقيين.

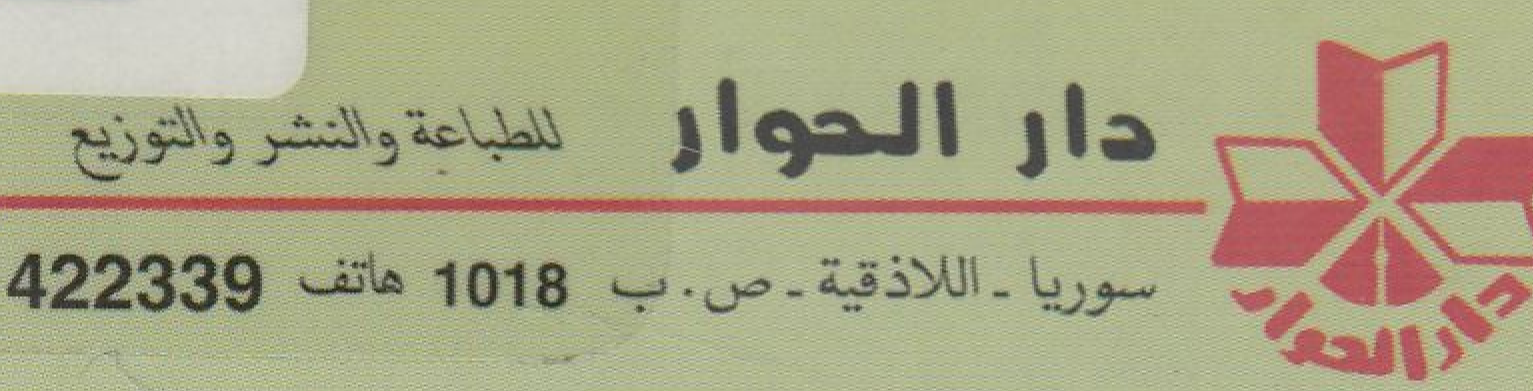
صدر له:

من أدب الزنوج ـ قصص قصيرة مترجمة

يقدم هذا الكتاب باقة من الشخصيات النسائية، بينهن المغمورة التي تعمل بالقمامة وتكتفي بالحصول على ثلاثة دولارات فقط في اليوم الواحد،لكن قصتها فيها من البطولة ما يستحق أن يؤلف عنها كتاب وحدها. وهناك ابنة العائلة الفقيرة التي اعتلت سُلم المجد بعد قصة كفاح مثيرة، وأصبحت ملكة عالم صناعة تدوير النفايات وتلك هي قصة التي اغتصبت دونما سبب، وقطّعت أطرافها وما زالت تعيش إنسانة ترنو إلى كرامة غير مثلومة ترى الجلاد فيها قد نال جزاءه، وثمة أيضاً المراهقة التي عاشت بريطانيا بسببها أطول حادثة اختفاء: وهذه تجربة لا يصدقها أحد، إذ كيف لشابتين لم تبلغا الثلاثين أن تتحولا إلى مليونيريتين من خلال عمل يدوي تقومان بممارسته في غرفة صغيرة داخل البيت!! ومن يصدق قصة تلك المرأة التي وقفت بشجاعة أمام من اتهمها بالجنون لتستعيد نفسها وحياتها بعد أن غيبتها المصحة النفسية، لكنها رجعت طبيبة تبهر الآخرين؟ للنساء اللواتي في هذا الكتاب قصص غريبة وغير م... من الإثارة الكثير وفيها من الحزن الكثير، وفيها من ... الذي فيها من الأمل أيضاً.



لوحة الغلاف للفنانة آمال فرج العيادي


دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا - اللاذقية - ص.ب 1018 هاتف 422339


9 789933 432270